ف. بارتولد

تاريخ الحضارة الإسلامية

ترجمة من التركية

حمزة طاهر

تقديم

عبد الوهاب عزام

الكتاب: تاريخ الحضارة الإسلامية

الكاتب: ف. بارتولد

ترجمة : حمزة طاهر

تقديم : عبد الوهاب عزام

الطبعة: ٢٠٢٠

صدرت الطبعة الأولى عام ١٩٥٢

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣
APA
E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

بارتولد ، ف.

تاريخ الحضارة الإسلامية/ ف. بارتولد، ترجمة : حمزة طاهر، تقديم : عبد الوهاب عزام – الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٤٣ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٢ – ٩٧ – ٦٨١٨– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٨٩٢٣ / ٢٠٢٠

تاريخ الحضارة الإسلامية





تقديم

١

كتاب في "تاريخ الحضارة الإسلامية" كتبه في اللغة الروسية المستشرق بارتولد وتُرجم إلى التركية مرات، ونشر الترجمة التركية الغربية الأستاذ العلامة محمد فؤاد كوبريلي، وكتب له حواش قصيرة كما ألحق به أبحاثاً مطولة ترمى في جملتها إلى تبيين نصيب الترك في الحضارة الإسلامية.

وقد استشارني صديقي وزميلي الأستاذ حمزة طاهر مدرس اللغة التركية بكلية الآداب في نقل الكتاب إلى العربية فاستحسنته وفرحت به؛ فسارع إلى ترجمة الكتاب؛ وبعض الحواشي المختصرة التي علقها عليه الأستاذ محمد فؤاد، وترك الأبحاث المطولة الملحقة بالكتاب وقد زيدت حواش قليلة في الكتاب؛ فكل حاشية ليست متبعة باسم محمد فؤاد فهي بيني وبين الأستاذ حمزة، وقد أثبت المترجم التاريخ الهجري ووضع بين أقواس التاريخ الميلادي، وقد اقتصر عليه المؤلف.

وليس هذا أول فضل لهذا الأخ الفاضل في النقل من التركية إلى العربية، فقد نقلنا معاً منذ عشرين سنة كتاب اتحاد المسلمين الذي ألفه جلال نوري، وترجم هو منذ سنين رواية طارق بن زياد التي كتبها شاعر الترك الأكبر عبد الحق حامد – وقد تأخر نشرها – وهو يترجم كتاب

"بابرنامه" الذي كتبه ظهير الدين محمد بابر مؤسس الدولة التيمورية في الهند، وهو سيرة ممتعة عجيبة كتبها لنفسه ملك يُعد من عجائب التاريخ طموحاً وإقداماً وصبراً. ولعل الجامعة تيسر نشر هذا الكتاب عما قليل[1].

٢

قسم بارتولد كتابه إلى مقدمة وستة فصول: الشرق المسيحي ومكانته في تاريخ الإسلام –الخلافة ومبدأ الحضارة العربية – بغداد وازدهار الحضارة العربية – الحضارة الإيرانية– فتوح المغول وتأثيرها في الحضارة الإيرانية– العالم الإسلامي بعد القرن الخامس عشر.

ولم يرتب بحثه على العصور بل على الأمم، ولكن خطة البحث انتهت به إلى الترتيب الزماني؛ فقد رفع العرب لواء الحضارة وهدوا الطريق وتبعهم الفرس، واقتفى آثارهم الترك؛ فكان الكلام على نصيب هذه الأمم في الحضارة الإسلامية مسايراً للترتيب التاريخي.

وقد تضمن الكتاب أبحاثاً قيمة وآراء سديدة، وتناول الجوانب الخفية ذات الخطر في تاريخ الحضارة، مثل الاقتصاد، ونظام المدن

---

(1) بعد كتابة هذه المقدمة للطبعة الأولى من هذا الكتاب زاد الأستاذ حمزة ترجمة ما يتعلق بمصر من رحلة أوليا جلبي وهو كتاب ممتع يصف مصر وصفاً مفصلاً دقيقاً، وستنشره وزارة المعارف، وترجمة "الدين والعلم" الذي ألفه القائد التركي الكبير المشير أحمد عزت باشا.

وسعتها، والسكة، والخراج، ورواتب عمال الدولة. ولابد لمثل هذه الأبحاث من كد ودأب.

وليس تاريخ الحضارة يالأمر الأَمَم، فإن الناس يرون الحوادث السياسية والخطوب المُحسَّة ويسجلونها، ولكنهم يغفلون عما وراءها من أسباب خفية، ولا يكادون يشعرون بالقوانين الاجتماعية والاقتصادية التي تنطوي عليها الحادثات الظاهرة. فلابد لمؤرخ الحضارة أن يجاوز الظواهر إلى البواطن، ويكشف الجزئيات عن الكليات، وينفذ إلى الحقائق التي تُسيِّر التاريخ. وإن الإنسان ليعجز عن إدراك كثير من هذه الحقائق وهي أمامه، فكيف بمن يلتمسها في غيابات التاريخ.

والمؤلف غير متحيز فيما يكتب، منصف حين يتكلم على الشرق والغرب، والمسلمين والمسيحيين، لا يتردد في الاعتراف للشرق بمزاياه، وللمسلمين بالبر والإحسان، وبما أجدوا على حضارة العالم كله في العلوم والآداب والشرائع.

وفي الكتاب آراء جديرة جداً بالاهتمام. منها كلام في الفصل الأخير عن أسباب تقدم أوربا وعن حال المسلمين في العصور الأخيرة، وعن انتفاع أوربا بأشياء اخترعها الشرق ولم ينتفع بها كما انتفعت، وعن أثر التجارة وطرقها في سبق الأوروبيين.

ويتضمن الكتاب كذلك فوائد لا تتهيأ إلا لمن أعانه سَعة علم وبحث. اقرأ قوله في صفحة ٢٩:

"وقد مُهد لحركة القرن السابع (الفتوح الإسلامية) بحركات العرب الصغيرة التي امتدت من قبل خارج شبه الجزيرة ولكن لم تبلغ درجة الفتوح. وكانت البلاد الواقعة شرقي الفرات أسفل مصب نهر الخابور تسمى "بلاد العرب" منذ عهد قرطاجنة حوالي ٤٠١ قبل الميلاد، كما أن المدن القبطية في مصر العليا نصف عربية منذ زمن استرابون". وقوله انه كان في الجيش البوزنطي في القرن الثاني الهجري مدرب عربين وأنه تركهم إلى البلغار فانتصروا على البوزنطيين، ص٥١.

وقد أجمل المؤلف البحث. ولو فصله في هذه الموضوعات الواسعة لكتب أضعاف ما كتب. فكتابه يشبه "متنا" في تاريخ الحضارة الإسلامية يحتاج على شروح مطولة. ويظهر الاقتضاب في بعض فصوله حتى يشعر القارئ أنه انتقل من موضوع لم يستوفه إلى آخر لم يمهد له. والقارئ الذي لم يطلع على تاريخ الفر س والترك وآدابهما يمر بأسماء لكبار العلماء والأدباء، وخطوب جسيمة تحتاج إلى بيان. وقد بينا بعضها، وخفنا أن يؤدي الاستيعاب إلى إطالة الحواشي. ويؤخذ على المؤلف أنه لم يُحكم ترتيب الأبحاث وتقسيم الفصول، فيشعر القارئ أحياناً أنه يقرأ سجلاً فيه حقائق قيمة وآراء سديدة جمعت للاستفادة منها على غير ترتيب واتصال.

وفي الكتاب مآخذ قليلة في أمور يختلف فيها النظر. ومن هذا أن المؤلف تابع ابن خلدون في كلامه على العرب والعجم ونصيبهما في العلوم الإسلامية وأثر العرب في خراب المدن؛ فقال في صفحة ٤٠

وهو يتكلم عن البصرة والكوفة: "ففيهما وضعت علوم العقائد والفقه من قبل الأعجام". ونقل عن ابن خلدون (ص٦١) أن العرب بدو هادمون للحضارة وهو قول لا يصدقه التاريخ، فائمة علوم الدين واللغة في ذلك العصر أكثرهم عرب. ولست أقول هذا عصبية للعرب ولكن أحقاقاً للحق. فقد ظُلم العرب منذ شاع رأي ابن خلدون العربي الكندي في أن حملة العلوم في الإسلام أكثرهم العجم. وهو كلام يعوزه شيء من التبيين. وليس هذا موضع المجادلة في رأي ابن خلدون ولكني أعارض رأيه بهذه الكلمات:

- وضع ابن خلدون العرب في مقابل غير العرب، فجعل أمة واحدة في إزاء أمم كثيرة، فظهر لغير المتثبت أن نصيب العرب في العلوم الإسلامية قليل.

- ولم يسر ابن خلدون في كلامه على خطة واحدة. فقد نظر إلى البيئة حين أراد أن يجعل العرب فُرساً فقال عن علماء العرب الذين عاشوا في إيران أنهم عجم بمنشئهم وشيوخهم، ونظر على الجنس حين أراد أن يجعل العجم الذين عاشوا في بلاد العرب عجماً. ولو نظر إلى البيئة وحدها لعد من العرب كل العلماء الذين نشأتهم الكوفة والبصرة وبغداد والبلاد العربية كلها، وعد سيبويه البصري تلميذ الخليل للعرب. ولو نظر إلى النسب وحده لعد للعرب كثيراً من أبنائهم الذين نشأتهم البلاد العجمية مثل الفخر الرازي ومحمد عوفي وجلال الدين الرومي إلخ.

- ولست أدرى كيف غفل هذا الفيلسوف الكبير عن حقائق التاريخ الباهرة، فقد استولى العرب على الشام والعراق ومصر وإيران فلم تخرب، وقد سارعوا إلى إنشاء المدن منذ القرن الأول وبقي كثير من هذه المدن على مر الزمان، وكان لهم في الزراعة والتجارة والعمران نصيب لا ينكره إلا من صرف الله بصره وقلبه عن الحق.

- على أنه قد ثبت أن ابن خلدون يقصد بالعرب في كثير من كلامه الأعراب كما يقال اليوم للبداة في كثير من البلاد العربية.

وبعد فللأستاذ المستشرق بارتولد الفضل بما كتب في هذا الموضوع العريض، وبما بذل من عقله وجهده في درس التاريخ الإسلامي عامة. وللأستاذ محمد فؤاد كوبريلي الثناء والشكر على ما سعى في إخراج هذا الكتاب وبما علق عليه تعليقات تدل على سعة علمه، وللأخ حمزة الفضل والشكر على أن وفق إلى نقل هذا الكتاب القيم إلى اللغة العربية فمكن قراء العربية عامة وتلاميذه في الجامعة خاصة من الاطلاع على هذه الفصول المفيدة.

د.عبد الوهاب عزام

رئيس معهد اللغات الشرقية

ترجمة حياة المستشرق بارتولد

بارتولد هو أحد كبار العلماء الذين أنجبتهم روسيا القيصرية، وقد وقف معظم حياته على خدمة التاريخ ولاسيما تاريخ الأمتين: التركية والإيرانية، إذ تخصص في دراسة مواطن هاتين الأمتين، وحاول تنوير المواضع المظلمة في تاريخهما بأبحاثه الوافية. وقد حكى أحد تلاميذ بارتولد حادثاً حدث له وهو طالب كان له أكبر تأثير في حياته المستقبلة. قال: "كان بارتولد يعرج قليلاً وبإحدى عينيه حول. وقد أحب فتاة رائعة الجمال وأقام على هذا الحب آماله. ولكن ظهر شاب جميل أعجب الفتاة بجماله فانتزعها منه. فتأثر بارتولد وحلف ليختصن بشيء لا يستطيع أحد أن ينتزعه منه، وأخذ في الاستشراق حتى صار حجة فيما اختص فيه".

ونورد هنا نبذة من ترجمة حياته مستخرجة من مقدمات بعض مؤلفاته ومن مقدمة الترجمة الهندية لهذا الكتاب ومن بعض المجلات.

ولد فاسيلي (وسماه بعضهم بولهلم) فلاديمر ويج بارتولد في بطرسبرج سنة ١٨٦٩ من أسرة ألمانية قديمة استوطنت روسيا. وتخرج في كلية اللغات الشرقية بجامعة بطرسبرج سنة ١٨٩١ وفي عامي ١٨٩١ و١٨٩٢ حضر محاضرات أوجُست مولر في جامعة هلا ونُلدكه في جامعة ستراسبرج بألمانيا، ثم رجع إلى روسيا وقام برحلة علمية إلى تركستان استغرقت سنتي ١٨٩٣ و١٨٩٤. ونشر تقريره عن هذه الرحلة

في بطرسبرج سنة ١٨٩٥ باللغة الروسية. وفي سنة ١٨٩٦ ألقى محاضرات في تاريخ الشرق بجامعة بطرسبرج وقد رشح للأستاذية فيها. ونال شهادة الدكتوراه من جامعة بطرسبرج سنة ١٩٠٠ برسالة قدَّمها لهذا الغرض عنوانها "التركستان أثناء استيلاء المغول"، وترجم كتابه هذا إلى الإنجليزية بعد أن أعاد النظر فيه ونقحه، ونشر في مجموعة جب التذكارية سنة ١٩٢٨ طبعته الثانية. ثم عين أستاذاً في جامعة بطرسبرج، وعضواً في معهد العلوم الروسي. وقد ذاعت شهرته، ودعي لإلقاء محاضرات في موسكو وطشقند وباكو وغيرها من المدن.

ونشر في طشقند سنة ١٩٠١ بحثاً عن بحيرة آرال ومصب نهر جيحون (آمودريا). وترجم كتابه هذا إلى الألمانية باسم Nachrichten über den Aral- See und den unteren Lauf. Des Amu- Darja. وظهر في سنة ١٩٠٣ كتابه المسمى "نظرة تاريخية وجغرافية إلى إيران" (باللغة الروسية). وألف في سنة ١٩١١ تاريخ الدراسات الشرقية في أوروبا وروسيا. نشر قسم من هذا الكتاب مترجماً إلى اللغة التركية في مجلة "ملى تتبغلر مجموعه سي". ونشر في سنة ١٩١٤ كتابه المسمى تاريخ الري في تركستان (باللغة الروسية). وكتب سنة ١٩١٨ في حياة ألوغ بك وزمنه وألقى محاضرة في تاريخ التركمان (باللغة الروسية). وظهر في سنة ١٩١٨ كتابه تاريخ الحضارة الإسلامية باللغة الروسية، وهو هذا الكتاب الذي ترجمناه.

وظهر له في سنة ١٩٢٢ كتاب العالم الإسلامي باللغة الروسية. وفي عام ١٩٢٥ نشر في مدينة باكو رسالة عن موقع الأراضي الواقعة

خلف بحر الخزر في تاريخ الإسلام. ثم نشر في عام ١٩٢٦ كتاباً باسم "قوقاز وتركستان وفولجا" وموضوعه العلاقات السياسية والدينية بين أمراء روسيا الإسلامية.

وفي عام ١٩٢٦ دعاه معهد التركيات لإلقاء محاضرات في جامعة استانبول عن تاريخ الترك ومدنيتهم في آسيا الوسطى، فألقى اثنتي عشر محاضرة قيمة طبعت في استانبول، وقد استفدنا معظم هذه المقدمة من مقدمة هذه المحاضرات. وله رسائل أخرى، أمثال "النصارى في آسيا الوسطى" نشرت في القسم الشرقي لمجلة جمعية الآثار الروسية في المجلد VII؛ ثم ترجمت إلى اللغة الألمانية باسم Zur Geschischte des Christentums in Mittelasien، ثم ترجمت إلى التركية. ورسالة "لوحة بالفارسية على جدار مسجد منوجهر" بالروسية، ورسالة "الإسلام" بالروسية. وآخر ما ظهر له كتابه "تاريخ الحياة الثقافية في تركستان" وكتابه "محاضرة تاريخية عن قير غيرز" وقد ظهرا في سنة ١٩٢٧.

وظل بارتولد يؤلف ويكتب في كثير من المجلات العلمية في روسيا وألمانيا مقالات تاريخية قيمة وفي دائرة المعارف الإسلامية حتى توفي في أغسطس سنة ١٩٢٧.

وأما كتاب تاريخ الحضارة الإسلامية هذا، فقد ترجمه جمال الدين وليدي أحد كتاب أتراك الشمال إلى اللهجة التركية القازانية سنة ١٩٢٢، وترجمه غازي يوسف وهو كاتب تركي أزبكي إلى اللهجة التركية الأزبكية سنة ١٩٢٧. ثم ترجمه إلى اللهجة الغربية (العثمانية) أحمد

أورال تلميذ الأستاذ محمد فؤاد كوبريلي، أستاذ الأدب التركي بجامعة استانبول سابقاً، وأستاذ تاريخ القرون الوسطى في السنين الأخيرة. وكتب له الأستاذ كوبريلي تصحيحات وإيضاحات قيمة، ونشره في سنة ١٩٤٠.

ولما قرأت الكتاب في هذه الترجمة، عقب صدوره، وجدته كتاباً قيماً، إذ ذكر المؤلف في مجلد صغير زبدة ما يمكن أن يقال عن الحضارة الإسلامية، محلقاً من علو شاهق، وقد أبدى كثيراً من سعة الصدر إلى جانب سعة العلم؛ فعرضته على صديقي العزيز وزميلي الدكتور عبد الوهاب عزام بك أستاذ الأدب العربي بجامعة فؤاد الأول ورئيس معهد اللغات الشرقية، فاستصوب نقله إلى اللغة العربية، وشجعني قائلاً: "إنه جدير بالترجمة إلى العربية لاحتوائه على آراء عالم مستشرق بعيد عن العالم الإسلامي" كما تفضل بعد إكمال طبعه بكتابة مقدمة له.

ونقلته إلى العربية، لغة الثقافة المشتركة لجميع المسلمين، نقلا يكاد يكون حرفياً، مع مقدمة الأستاذ محمد فؤاد كوبريلي، وبعض تعليقاته المفيدة، وزدت تعليقات رأيتها مفيدة للقارئ، وكتب الدكتور عزام بك تعليقات أخرى. وحسبي من عملي هذا أن أنقل آراء هذا العالم الجليل إلى قراء العربية، أميناً متثبتاً.

د.حمزة طاهر

مقدمة

١

إن عهداً طويلاً من تاريخ الترك يقارب ألف عام، منذ دخول الترك في الإسلام إلى "التنظيمات[١]" داخل في إطار عام يسمى تاريخ الإسلام. وقد دخل الأتراك في جامعة الأمم الإسلامية وعملوا مع العرب والإيرانيين وعناصر إسلامية أخرى على ازدهار الحضارة العظمى التي تسمى الحضارة الإسلامية أكثر من ألف عام، وأسسوا في ساحات الإسلام المختلفة دولاً قائمة على الأرستقراطية العسكرية، وجعلوا في أيديهم قيادة العالم الإسلامي منذ ظهور الدولة السلجوقية الكبرى حتى العصر الأخير. فمن الطبيعي ألا يُفهم تاريخ الإسلام دون معرفة تاريخ الترك الذين أثروا تأثيراً كبيراً مستمراً في شؤون العالم كله وفي العالم الإسلامي خاصة، كما أنه من الطبيعي أيضاً ألا يمكن فهم تاريخ الترك في القرون الوسطى بدون إدخاله في إطار تاريخ العالم الإسلامي.

وقد أصبح معروفاً اليوم أنه لا يمكن البحث في تاريخ من التواريخ القومية دون أن يوضع في مكانه الطبعي من التاريخ العام. فإذا تركنا جانباً ما أحرزه التاريخ ولا يزال يحرزه من الخطورة في التربية القومية، فإنما يقاس قيمة كل تاريخ قومي وخطورته بعظمة تأثيره المادي والأدبي ودوام

---

(١) عهد التنظيمات في تاريخ الدولة العثمانية يبدأ بتلاوة رشيد باشا وزير الخارجية أمر (فرمان) السلطان عبد المجيد ابن السلطان محمود الثاني في حديقة "كلخافة" سنة ١٢٥٥هـ (١٨٣٩) م في حضور سفراء الدول وقناصلها وأعيان الدولة العثمانية وعلمائها. ويتضمن ذلك "الفرمان" ما يعتزم السلطان إجراءه من الإصلاحات في إدارة الدولة، والمساواة بين رعايا الدولة دون نظر إلى الفروق الدينية.

هذا التأثير في إطار التاريخ العام. وإذا لم نبلغ هذا الحد من فهمنا للتاريخ العام التركيبي (synthétique) فإن درس تاريخ كل أمة ضمن دائرة ثقافتها أو ثقافاتها التي تتصل بها ضرورة لا شك فيها؛ فليس ضرورة علمية فحسب، بل من الضرورات القومية أيضاً أن يبحث الأتراك – الذين أمضوا ألف عام من تاريخهم في دائرة ثقافة تاريخ الإسلام في الشرق الأدنى، والذين كان لهم شأن عظيم فيها – في هذه الثقافة بحثاً جديراً بها.

وتبدو هذه الضرورة في درس تاريخ الفكر والفن، وتاريخ الشريعة وتاريخ الدين، أو بكلمة واحدة، تبدو في جميع شُعَب التاريخ الاجتماعي. وكما أنه لا بد من معرفة تاريخ التشريع الإسلامي معرفة نظرية وعلمية لدرس تاريخ شرائع الأتراك المسلمين، فإنه من الضروري كذلك فهم تاريخ النظم المشابهة لها عند العرب والإيرانيين؛ وبهذه الصورة يتضح أنه لا يمكن فهم المسائل التشريعية الخاصة بأمة منها فهماً حقيقياً دون فهم تاريخ تكامل التشريع بدراسة مقارنة لشرائع تلك الأمم الثلاثة الداخلة ضمن دائرة ثقافة واحدة. ومع أن لكل أمة من الأمم الداخلة ضمن الثقافة الإسلامية ماضيها وتقاليدها الخاصة بها قبل الإسلام، وعبقريات نشأت من البيئات الجغرافية والحضارات المحلية، فإن لها ميزات عامة نشأت من اجتماعها في دائرة ثقافة واحدة و"تاريخ مشترك".

يتضح من الأسباب المذكورة أن تعلم تاريخ الإسلام والثقافة

الإسلامية، ولو في صورة مجملة، ضرورة قصوى لمثقفي الترك الذين يشعرون بحاجة إلى الحصول على ثقافة في تاريخهم القومي.

وينبغي ألا يُستغرب إذا قلنا إن أحدث الكتب المؤلفة في هذا الموضوع المنشورة في بلادنا وأعظمها لا تسد هذه الحاجة. فكتاب "التمدن الإسلامي" لجرجي زيدان، المرتب على خمسة أجزاء. والمترجم إلى التركية ترجمة حسنة؛ وتاريخ الإسلام للسيد أمير على الهندي المرتب على جزئين، يمكن أن يزودا قراءهما بمعلومات كثيرة مشتتة غير منسجمة؛ ولكن لا يمكن أن نعرف من هذين التاريخين مكانة الحضارة الإسلامية الحقيقية في تاريخ العالم، المنبثة في مئات الصفحات لأنهما ينقلبان أحياناً إلى تاريخ قصصي وأحياناً إلى مدائح (apologie). إن أمثال هذه الكتب المؤلفة بالعقلية الشرقية متعبة جداً وقليلة الجدوى لعقلية قد أعدّت كما يقتضي تثقيف القرن العشرين، وتشعر بحاجة إلى فهم الماضي موافقاً لنظرات هذا اليوم. ولكي نرى صفحات تطور تاريخي قد امتد قروناً كثيرة بخطوطها العامة البارزة يجب النظر من عَل بدون استغراق في الفروع غير اللازمة، ولا إخلال بوضوح اللوحة العامة وصحتها. ولأجل الوصول إلى هذه الغاية يجب على المؤرخ، مع اطلاعه على جميع تلك الفروع، أن يكون عالما بتمييز الأحداث الفرعية عن الأحداث الأصلية، أو بعبارة اصطلاحية أن يميز الأحداث العارضة من الأحداث الدائمة، أو بعبارة أصح يجب أن يكون مطلعاً على المعلومات المختلفة المؤدية إلى إدراك حدود الحقائق الاجتماعية المرتبطة بعضها ببعض. فإن نظر المؤرخ وفهمه عاملان من الدرجة الأولى، سواء في

الأعداد التحليلي لتمييز الأحداث بعضها من بعض، أو في وضع إنشاء تاريخي بإيضاح تلك الأحداث وتركيبها. ومن أجل ذلك يضطر مؤرخ كل عهد أن يعنى بالمسائل التي شغلت الأذهان في ذلك العهد قبل غيرها، وتسجيل مظاهرها وإيضاحها. مفكرو اليوم مثلا يُعنون بالمسائل الاقتصادية والاجتماعية قبل غيرها، فيعنى مؤرخو اليوم كذلك بالبحث في أصل هذه المسائل ومظاهرها في الماضي لأن العقلية المعدة لحاجات اليوم إذا أرادت أن تعرف عهداً من العهود الماضية بحثت في كتب التاريخ التي ترجع إليها، في مظاهر تلك المسائل في الماضي. وينبغي أن نعذر في هذا قارئاً غير متخصص لا يعنيه غير إتمام ثقافته العامة. ولكن لا شك أن هناك فرقاً بين الكتب المؤلفة لإقناع المتخصصين المتبحرين والعلماء في ساحة من ساحات العلم، وبين الكتب المؤلفة لسد حاجة الطبقة المثقفة العامة.

فالكتب المؤلفة في تاريخ الإسلام وحضارته التي ذكرناها آنفاً، أو الكتب الشرقية، بل بعض الكتب الغربية الشبيهة بها أيضاً، ليست كافية لسد حاجة مثقفي الترك اليوم. فمؤلفوها، كجرجى زيدان مثلا، علماء ذوو معلومات واسعة؛ ويمكن أن يجد المشتغلون بتاريخ الإسلام، بل المتخصصون أيضاً، معلومات كثيرة في كتابه الكبير. ولكن لا يمكن انتظار تاريخ "تركيبي" يطمئن إليه قراء أمس، بله اليوم، من رجل قد حُرم من الإعداد الفني الضروري "للأعمال الأولية التحليلية للتاريخ". والحق أننا مضطرون إلى الاعتراف بأننا بالرغم من ادعائنا الدخول في دائرة الحضارة الأوروبية منذ عهد "التنظيمات"، لم ينشأ عندنا، ولا في البلاد

الإسلامية الأخرى، مؤرخ حقيقي بالمعنى المفهوم اليوم إلى زمن قريب. وليس كافياً لسد هذه الحاجة أن نبغ في الشرق خلال القرن الأخير، رجال لهم معرفة تاريخية واسعة، ومعرفة فنية، ومحيطين بأمور كثيرة. على أننا لا ننكر أنه من النادر أن نجد بين مستشرقي الغرب المتخصصين في فقه اللغات الإسلامية، مؤرخين بالمعنى المعروف اليوم. ولذا فإن الدراسات الخاصة بتاريخ الإسلام اليوم، وتاريخ الترك في القرون الوسطى، ولاسيما دراسات التاريخ الاجتماعي، لا تزال متأخرة. فما أسرع ما يظهر فتور الأبحاث المكتوبة عن تاريخ الإسلام وتاريخ الترك في القرون الوسطى، وخاصة في المسائل الاجتماعية، في كتب التاريخ العام التي ظهرت بكثرة في أوروبا بعد الحرب العالمية، عند مقارنتها بالأبحاث الأخرى. لندع المؤلفين الذين عجزوا عن القيام بالعمل كما يجب؛ ولكن هذا النقص في مؤلفات العلماء الأجلاء أمثال G. Marçais وG. Demombynes لا شك ناشئ من عدم تذليل هذه المواضيع إلى اليوم

٢

كنت منذ نحو اثني عشر عاماً أدرس تاريخ الأدب التركي في جامعة استانبول، وأحسست إذ ذاك بشدة حاجة تلاميذي إلى كتاب صغير تركيبي محتو على معلومات صحيحة عن تطور الحضارة الإسلامية العام، يوسع نظرهم إلى التاريخ ويجمع المعلومات المشتتة في هذا الموضوع في دوائر معينة. ولا تفيد أمثال هذه الكتب إلا إذا ألفها علماء

من عظماء المتخصصين. وأما كتب المؤلفين الناشئين المحدثين غير المستندة على علم واسع وتجاريب سنين طويلة فيمكن أن تدفع القراء إلى حكم مستعجل خاطئ، وتنتج أخطاراً عظيمة بتحريف الحقيقة التاريخية. وفي ذلك الوقت أنجدني كتاب صديقي المرحوم الأستاذ بارتولد الذي لم يكن عالماً بفقه اللغات فحسب بل مؤرخاً جليلاً أيضاً. ظهر هذا الكتاب في سنة ١٩١٨ باللغة الروسية، وترجمه جمال وليدي إلى اللهجة التركية التترية في قازان سنة ١٩٢٢. وفي سنة ١٩٢٧ ترجمه غازي يونس إلى اللهجة الأزبكية ولما عُهد إليّ في السنين الأخيرة تدريس تاريخ القرون الوسطى في كلية أنقره، أحسست بالحاجة إليه لطلبة التاريخ. وكلفت تلميذي "أحداورال" بترجمته إلى التركية. ولكن لم يكن جائزاً قصر الانتفاع بهذا الكتاب الجليل الذي يسد مثل تلك الحاجة الكبيرة على بيئة ضيقة، فإن في إمكان كل تركي متعلم، مهما كان نوع ثقافته، الانتفاع به في استكمال معلوماته البشرية والقومية، بدون حصره في بيئة طلبة الجامعة والمدارس العليا.

ولذا أحدثت هذه الترجمة مقابلة بالترجمتين التترية والأزبكية مقابلة دقيقة، وأصلحت بعض أغلاط خطيرة وقعت فيهما؛ ثم قارنتها بالترجمة الإنجليزية (Mussulman Culture, University of Calcutta 1934) لشاهد السهروردي الذي لم يزد غير بعض حواش غير مهمة في بضع صفحات، وترجمة المؤلف وذكر مؤلفاته. ثم أردت ألا أقتصر على هذا القدر لأسباب مختلفة: منها أن الكتاب ألف سنة ١٩١٨ فلم يُستفد فيه من كبت كثيرة في تاريخ الإسلام وثقافته، ظهرت بعد التاريخ

المذكور. ومنها أن المؤلف العظي م المتخصص في تاريخ إيران وآسيا الصغرى وقع في أخطاء في المسائل الخارجية عن دائرة اختصاصه فكرر كثيراً من الأخطاء والأحكام العاجلة التي عرفت منذ القدم. ولتصحيح تلك المسائل وتكميلها اضطررت إلى إضافة قسم آخر للكتاب بعنوان "الإيضاحات والتصحيحات" واضعاً نصب عيني في عملي هذا حاجة طلبة التاريخ في معاهدنا العلمية العليا، فبينت في كل مسألة خطيرة أين يمكن الحصول على معلومات فيها، أو بعبارة أصح أين توجد المراجع مجتمعة، وذكرت ماهية تلك المراجع وقيمتها بعبارات مختصرة كما ذكرت ما في المراجع من نقص يجب إتمامه. فستكون الإيضاحات والتصحيحات توجيهاً لمن يريد التعمق في مسائل الحضارة الإسلامية. ولقد حاولت إظهار بعض مسائل عويصة لم تُذلل بعد، كما أشرت إلى نقط كثيرة من دراستي القديمة يجب تصحيحها. وبفضل هذه الزيادات التي هي نتيجة مجهودات طويلة متعبة لا يدركها إلا من قام بمثلها، جاوز الكتاب أن يكون كتاباً يزود المثقفين والمفكرين بمعلومات عن الحضارة الإسلامية، فصار كتاباً موجّهاً لمن يريد البحث في شعب تاريخ الترك وحضارتهم المختلفة. وإني أظن أن كلا القسمين، القسم الأول التركيبي الذي ألفه المؤرخ الجليل بارتولد والقسم الثاني النقدي والمرجعي (bibliographique) الموجّه الذي كتبته، يفيد كثيراً نشأتنا الحديثة التي تتلقى علم التاريخ في كلية آدابنا. ويدل على ما يسد هذا المجلد الصغير من نقص كبير أنه لم يوجد حتى اليوم كتاب من هذا الطراز في الحضارة الإسلامية حتى في اللغات الغربية.

٣

بعد أن بينت كيف تكوَّن هذا المجلد الصغير أريد أن أذكر سبب اختياري له "كتاباً تركيبياً مشتملاً على أحسن المعلومات وأكثرها نظاماً" يرجع إليه المثقفون من جميع الطبقات للاطلاع على تطور تاريخ الحضارة الإسلامية العام، حتى يمكن إدراك ماهية كتاب بارتولد وتبيين جهاته القوية والضعيفة من جهة، ويمكن تزويد القراء بفكر عام عن كتب شبيهة به بمقارنتها بكتاب بارتولد من جهة أخرى.

من التقاليد المعروفة لدى مستشرقي أوروبا، منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، "جمع نتائج الأبحاث التي وقعت إلى زمانهم وتلخيصها" في كتاب تركيبي عن دين الإسلام والعالم الإسلامي. فالاشتغال بفقه اللغات السامية وتاريخ الإسلام الناشئ من أبحاث التبشير ونشاط المبشرين من جهة، ومن الحاجات السياسية والإدارية للدول الكبرى والصغرى التي لها مستعمرات، والضرورة الملحة إلى أن تعرف الدول ذوات المصالح الكبيرة الشعوبَ التي تستعمرها، والممالك الإسلامية التي لها صلات بها؛ كل هذا كان منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلى سنة ١٩١٤، سبباً لنهضة الدراسات الإسلامية في أوروبا. وقد زاد في خطورة هذه الأبحاث، وتعلق الطبقة المثقفة بها في كل البلاد، رقى العلوم الاجتماعية وفهم التاريخ العام، واجتماع الضرورات العلمية لمعرفة المراحل العظيمة التي "تربط التاريخ القديم بتاريخ القرون الوسطى" بهذه الضرورات العملية. فالكتب المرتبة،

والتركيبية التي يشعر العلماء المتخصصون في الأبحاث الإسلامية بالحاجة إلى كتابتها حيناً بعد حين، ناتجة عما سبق. وأما الحركات السياسية والفكرية، وتيارات الحركات القومية والتجديد التي ظهرت بعد انتهاء الحرب العالمية، فقد جعلت شعور العالم الغربي – لغايات سياسية وعملية – أكثر علاقة بالعالم الإسلامي. وكانت الضرورات العلمية تزيد الحاجة إلى درس تاريخ الأمم الإسلامية وحضارتها والتعمق في فهمها يوماً بعد يوم. فقد أريد ألا يُقصر التاريخ العام على الغرب المسيحي كما كان من قبل، بل يُجعل تاريخاً بشرياً تركيبياً محتوياً على الشرق الإسلامي والشرق الأقصى الخارج عن حدود الأديان السامية. ونشاهد هذا الميل قليلاً أو كثيراً في سلسلة كتب التاريخ العام التي نشرت في أوروبا؛ ومع أن هذا الميل لا يزال في المقدمة ولا يفترق عن "الروتين" القديم، فإنه يبشِّر بانتصار فهم التاريخ العام بمعناه الحقيقي في المستقبل. فكتاب بارتولد هو من تلك الكتب التركيبية التي ظهرت في أوروبا بعد الحرب العالمية عن العالم الإسلامي، نتيجةً لتلك الميول في عامل الفكر.

إذا قورنت هذه المؤلفات جميعاً بكتاب ف. بارتولد مقارنة سطحية ظهر أنها كتب تكثر العناية بالبحث في نشأة الإسلام، والعقائد الإسلامية الأصلية، والفلسفة وعلم الكلام، وفي المذاهب الإسلامية المختلفة، وفي المذاهب الفقهية وفي الطرق الصوفية وفي فرق خارجة عن عقائد أهل السنة؛ وفي حركات التجديد الدينية التي ظهرت في الأزمان الأخيرة أو في حالة العالم الإسلامي السياسية اليوم؛ ولم تُعن هذه الكتب قط بالتطور التاريخي للأمم الإسلامية. وإذا تركنا جانباً الكتب البسيطة منها

ككتاب العالم الإسلامي Le Monde Islamique لمؤلفه مايرهوف Mayerhof الذي نشره سنة ١٩٢٦؛ فمن الكتب المؤلفة على هذه الخطة كتاب النظم الإسلامية les Institutions Musulmanes العظيم الذي أصدره ديممبين G. Demombynes عام ١٩٢١، وكتاب الإسلام والعقائد والنظم L'Islam, Ctoyances et Institutions (بيروت ١٩٢٦) للأب لامنس غير البريء من التحيز رغم سعة علومه. والكتاب الأخير يكمّل بعض نقط كتاب العقائد والشرائع الإسلامية le Dogme et la loi de l'Islam العظيم الذي ألفه جولدزيهر سنة ١٩١٠، ونشر أرين F. Arin ترجمته الفرنسية سنة ١٩٢٠. وما استثني منها إلا كتاب الإسلام L'Islam الجليل الذي أصدره صديقي العزيز هنري ماسي H. Massé سنة ١٩٣٠ إذ قد حاول المؤلف في هذا الكتب إظهار التطور التاريخي للإسلام، فوق الأبحاث الخاصة بالعقائد؛ وخصص مكاناً للإيرانيين والأتراك والدول البربرية في إفريقية الشمالية، فلذا يمكن أن يشغل هذا الكتاب المؤرخين أكثر من غيره.

وأما كتاب بارتولد الصغير فلا يشبه من جهة تخطيطه العام كتاباً من تلك الكتب التي ذكرناها؛ فليست فيه "الخلاصة المتعلقة بأصل الدين الإسلامي (dogmatique)" التي توجد في جميع الكتب الأخرى كما لا تُشاهد فيه إيضاحات عن ظهور الإسلام وحياة الرسول وتعاليمه التي لا يخلو منها عادة مثل هذا الكتاب في القديم والحديث. فقد حاول أن يصوِّر الحضارة الإسلامية "داخل حدود التاريخ العام" لا بعواملها الداخلية فحسب، بل بعواملها الخارجية أيضاً. فالمؤلف الذي أبرز

خطورة الشرق المسيحي للإسلام، يشرح بعد مدخل عام، ابتداء هذه الحضارة في عهد الخلافة وازدهارها في العهد العباسي، وموقع الحضارة الإيرانية من الثقافة الإسلامية، والنتائج العامة للاستيلاء المغولي؛ ثم يصف العالم الإسلامي بعد القرن الخامس عشر وصفاً عاجلاً ناقصاً فيختم كتابه فجأة بطريقة عاجلة أيضاً.

ومع أن كثيراً من الكتب القديمة والحديثة المؤلفة في موضوع عام كالحضارة الإسلامية قد اتبع مؤلفوها خطة تكاد تكون واحدة مع فرق ضئيل. فإن وضع بارولد نصب عينيه خطة مخالفة لخطتهم، وعدم نظره إلا إلى التكامل التاريخي، يجعل لهذا الكتاب ميزة خاصة. ثم إن الكتب الأخرى تبحث في المؤسسات الاجتماعية المختلفة في مباحث منفصلة، في حين أن بارتولد لا يقسم الحياة الثقافية إلى أقسام مصطنعة، بل يصورها جميعاً "كلاً" واحداً كالحياة الواقعية، ويحاول شرحها. وينبغي ألا ننكر أن هذه الخاصة تجعل الكتاب في الوهلة الأولى كأنه غير متبع خطة معينة. ولكن يجب أن لا ننسى قط أن المزاج الذي نسميه الحياة الاجتماعية والذي ينشأ من امتزاج عضوي لمؤسسات اجتماعية متنوعة وعناصر خارجية، مؤلف في الواقع من عناصر لا يمكن تفريقها، ويمكن في الوقت نفسه عمل تركيب تاريخي. وفي وسعنا أن نقول أن بارتولد قد سار في كتابه هذا متفقاً مع أحدث الاتجاهات التاريخية. وميزة كتابه الثانية عدم إهماله للعوامل الاجتماعية والاقتصادية للحضارة الإسلامية ما أمكن. هل لنظرية "التفسير المادي للتاريخ Matérialisme historique" التي اتخذت شكل مذهب رسمي في روسيا في السنين

التي ألف فيها الكتاب تأثير في هذا؟ لا أزعم هذا، إذ ليس في إمكان المؤرخ الكبير الذي يُعنى بالأحداث الاجتماعية والاقتصادية في بحوثه التاريخية إهمال مثل هذه المسائل حين يشرح تكامل الحضارة الإسلامية، بل أكبر ما يمكن أن يوجه إليه من النقد هو عدم إفساحه مجالاً أوسع للعوامل الاجتماعية والاقتصادية في كتابه هذا.

إن أخطر ما في هذا الكتاب عندنا هو عدم إنكاره شأن الأتراك في سير الحضارة الإسلامية العام إنكاراً باتاً – رغم كل الآراء السلبية التي كانت سائرة في ذلك الوقت في عالم العلم – ومحاولته إبراز ذلك الشأن. على أننا لا ندعي تحرر بارتولد في هذه المسألة من الآراء القديمة الباطلة والأحكام الخاطئة التي كانت تسيطر على جميع مستشرقي ذلك الوقت؛ فإننا كما لمحنا كثيراً في الإيضاحات والتصحيحات نشاهد عنده أيضاً تأثير الآراء السلبية في شأن الأتراك. وليست له إلا معلومات عامة عن الدولة العثمانية وهي أهم عصور تاريخ الترك وأزهاها، لأنها خارجة عن دائرة اختصاصه. وبالرغم من ذلك قد وفق هذا المتخصص العظيم في تاريخ إيران وآسيا الوسطى، بتثبت عالم حقيقي ولقانة (intuition) مؤرخ عظيم متعمق في معنى الأحداث، إلى إدراك شأن الأتراك في مسائل كثيرة.

ومما يميز هذا الكتاب عن أمثاله اعتناء مؤلفه بالإيرانيين والأتراك، بدون عناية مبالغ فيها بالعالم العربي، وبلاد إفريقية الشمالية التي ظلت بعيدة قليلاً أو كثيراً والتي لم يكن لها موقع أساسي خطير في تطور

الحضارة الإسلامية العام. وإذا استثنينا كتاب H. Massé فجميع الكتب الأخرى لا تجعل للأتراك مكاناً حتى في صدد بحث التطور التاريخي، ويفرضونه عنصراً هادماً لا غير. وقد عني بارتولد في تاريخ الحضارة الإسلامية بالجوانب الخطيرة من حيث النظر في تاريخ الترك وبلادهم وازدهار هذه الحضارة فيها، عنايته بالتاريخ العام، فمن الطبيعي أن يكون كتابه أفيد لمثقفي الترك وأكثر تعلقاً بهم. والحق أن مؤلفي الكتب الشبيهة بهذا الكتاب في تاريخ الحضارة الإسلامية لا يمكن مقارنتهم ببارتولد كمؤرخين أيضاً.

٤

أظن أن الأسباب التي حاولنا شرحها بالإيجاز قد أوضحت ترجيحنا لكتاب بارتولد على غيره. فإننا بإشارتنا إلى الجهات القوية والجهات الضعيفة من هذا الكتاب المؤلف بعقلية تاريخية كاملة ونظرة واسعة، قد أرشدنا القراء إلى الصورة الحقيقية للكتاب الذي بأيديهم. ولا ينبغي أن يُظَن، بنقدنا المادي المحض، أننا ننزع فيه إلى "فهم تاريخ قومي وجداني" أنتجته القومية المتعصبة؛ ولو أن البحث في تاريخ تقدم أي وطنية يدل على أن الأدوار الأولى منه وجداني محض، وأن لهذه الحملة النفسية الكبيرة فائدة جليلة في البحث التاريخي. فإذا استقرت الأصول العلمية، والعقلية النقادة، استحال دوام ذلك العهد الحماسي، فحل محله العلم ومنطقه الهادئ. وإنا لنشاهد انقضاء العهد الوجداني أو إشرافه على الانتهاء حتى عند مؤرخي بلاد البلقان، وهي أخريات البلاد

الداخلة في الحضارة الغربية. وأما جعل التاريخ شاهد زور في سبيل المنافع السياسية أو للدفاع عن الآراء المغرضة، فإنه عمل مؤلم حقاً وغير مجد للعلم وللكرامة الإنسانية. غير أنه يجب أن نقول مسرورين بأن مثل هذه الأعمال صائرة إلى الزوال، وأن عدد العلماء الباحثين في التاريخ بحثاً واقعياً بصفة مادية محضة قد أخذ – رغم كل شيء – في الازدياد.

وقد رأت القومية التركية – بالطبع – العهد الوجداني لفهم التاريخ القومي، ولم يكن بد من أن يكون رد فعل مؤرخينا مفرطاً ومبالغاً إزاء مؤرخي أوربا الذين يرون الأتراك بآراء سلبية ظالمة غير مستندة إلى أي أساس علمي، وكان الأمر كذلك حقيقة. إن تقدم النقد الذي هو أساس كل الآراء العلمية، واستقرار أصول الدراسات العقلية (rationnel) سيختم عندنا، كما ختم في كل البلاد، هذا العهد التاريخي الوجداني "الذي ظل سائداً منذ أكثر من نصف قرن، مع بعض فواصل". ولكن هذا الفهم للتاريخ خلق عندنا، كما خلق في كل مكان آخر، نزعة نفسية إلى البحث في التاريخ القومي، باعتباره دافعاً إلى البحث في شأن الأتراك في التاريخ العام. ويجب أن أعترف أيضاً أن العامل الوحيد الذي دفعني قبل ثلاثين عاماً إلى البحث في التاريخ القومي وإلى عدم مفارقة هذا الطريق بالرغم من موانع كثيرة –توقع الإنسان في اليأس والكسل – هو هذه الحملة النفسية. على أني يجب أن أسرع فأقول بأني منذ اليوم الأول حاولت ألا أفارق الأصول العلمية والمادية في بحوثي التاريخية، وأن أنقد آراء مؤرخي الغرب الوهمية السلبية في شأن الأتراك نقداً مادياً صرفاً.

ولكني لا أستطيع أن أخفي أني قد اندفعت في تأثير الآراء الوجدانية في بعض كتاباتي القديمة، رغم ما لي من عزم أكيد على عدم مفارقة العقلية (rationalism)، غير أني لا بد أن أقول أيضاً وأنا مسرور أني بفضل النتائج الإيجابية التي حصلت عليها من دأبي على العمل مدة ثلاثين عاماً رغم كل الموانع، قد وفقت لتغيير آراء كثيرة خاطئة في شأن الأتراك في القرون الوسطى، وقبِلَ كثير من علماء الغرب هذه النتائج.

إني من المؤمنين بالعلم وبسير الإنسانية نحو الخير والصدق، وأحمل اليوم في قلبي وفي رأسي ثورة القومية التركية الإنسانية كما حملتها منذ ثلاثين عاماً. ولكني إذا شرعت في البحث عن حقيقة تاريخية تذكرت أني خادم حقيقة علمية قبل كل شيء. إني أقول دائماً، إنه مما لا شك فيه أن علماء العالم سيقبلون نتائج أبحاثنا إذا أبرزنا شأن الأمة التركية في تاريخ العالم بطريقة مادية باحثين بعقلية اليوم، كما أنه من المؤكد أن تستفيد الأمة التركية فائدة عظيمة.

وإني أنتهز الفرصة حين أنتهي من هذه الأسطر مقدماً إلى القراء صديقي المؤرخ الجليل المرحوم بارتولد، فأنبئ بأني أقوم بتجربة في تأليف تاريخ تركيبي للحضارة التركية في القرون الوسطى لتكميل تاريخ باروتلد من جهة أخرى.

محمد فؤاد كوبريلي

مؤرخ متخصص في التاريخ التركي



تاريخ الحضارة الإسلامية

مدخل

"حضارة الإسلام" أو "حضارة العرب" اسم لحضارة الشرق في القرون الوسطى، ولم يكن العرب وحدهم مبتكري هذه الحضارة ولكن جميع سكان الشرق الأدنى وقسم من إفريقية، الذين ظلوا مدة طويلة منفصلين عن الحضارة الأوروبية، آخى بينهم الإسلام دين الدولة، واللغة العربية لغة العلم والأدب.

وليس استعمال كلمة "الشرق" في تاريخ الحضارة متفقاً مع معناها الجغرافي اتفاقاً تاماً؛ فإن بلدان الشرق الأدنى المتحضرة كان يجب تسميتها في روسيا بالجنوب. وكذلك إفريقية الشمالية التي تعد جزءاً من الشرق الإسلامي، جنوبية بالنسبة إلى أوروبا.

ابتدأ استعمال كلمة الشرق بمعنى البلاد المتحضرة مقابلا للغرب، في عصر الإمبراطورية الرومانية. ولم يكن يوجد في نظر اليونان إلا الجنوب الحار المتحضر والشمال البارد موطن المتوحشين، وكانوا في تقسيمهم العالم إلى أقسامه المختلفة يسيرون على هذا الأساس نفسه، فيجعلون أوروبا شمالي آسيا وإفريقية معاً؛ فلو كانت سيبريا معلومة لهم لعُدت قسماً من أوروبا. وجميع سكان العالم، ما عدا اليونان، ينقسم في

نظر أرسطو إلى البرابرة الشجعان المقيمين شمالي أوروبا القاصرين عن التحضر وإدارة الدولة، والأسيويين المتحضرين المحرومين من الشجاعة. وتقع اليونان بينهم، وإقليم بلادهم يلائم تقدم الحضارة والمحافظة على الشجاعة؛ فلذا أرسل هذا الشعب ليحكم العالم. ولقد حقق الإسكندر المقدوني خيال أرسطو هذا بعض التحقيق؛ فإن فتوح الإسكندر الشرقية أخضعت الشرق الأدنى ومصر لليونان من جهة السياسة والحضارة، وأوجدت حضارة شرقية متأثرة باليونان (متغرقة). وكان تأثير آسيا في اليونان أقوى من بعض الوجوه – ولاسيما في أمور الدولة – ولكن كانت أزمة الحضارة بأيدي اليونان، وقد حافظوا على تفوقهم في الحضارة، حتى بعد أن فقدوا سلطانهم السياسي بتضييق البارثيين عليهم من الشرق والرومان من الغرب[1].

أثبتت روما بإخضاع مصر لحضارتها خطأ رأي أرسطو القائل: "إن غير اليونان من الأوروبيين غير مستعدين للحضارة". لم تكن أوروبا من جهة موقعها الجغرافي في عهد الرومان من أجزاء العالم الواقعة شمالي آسيا، بل كانت قسمه الغربي. وقد ادعى استرابون، العالم الجغرافي الذي عاش قبل الميلاد بقرن – وقد بين موافقة أوربا للحضارة من جهة جغرافيتها الطبيعية وإقليمها – تفوق إيطاليا في الموقع الجغرافي، ورأى شبه الجزيرة هذا موضعاً يكفل للرومان سيطرتهم على العالم.

---

(1) للحصول على معلومات أوسع في هذا يمكن مراجعة كتاب لبارتولد عنوانه "تاريخ الأبحاث الشرقية في أوروبا وروسيا" نشر في مجلة (ملى تتبع لـ مجموعة سي، عدد ٢ ص٣٦٤– ٣٧٤، استانبول سنة ١٣١١)

وقد أظهر الرومان تفوق أوربا على آسيا بنجاحهم في الأعمال الحربية والفنون العملية والقوانين، كما أن اليونانيين شغلوا الموقع الأول في الفن والعلم. وبدأ الفرق بين الغرب المتأثر بالرومان وبين الشرق المتأثر بالأغريق في هذا العهد. وكانت كلمة الشرق تطلق أحياناً اصطلاحاً ملكياً وإدارياً، "على جميع البلاد الداخلة في إمبراطورية الإسكندر القديمة" مبتدئة بشبه جزيرة البلقان. وأما العالم اليوناني والروماني فكان يُعد عالماً على حدة في نظر الرومان أنفسهم أيضاً لا في تاريخ هذا العصر فحسب؛ فكل روماني مثقف ملزم بمعرفة كلتا اللغتين، أي اللاتينية واليونانية. وكان الشرق على هذا المعنى بلاد الدولة الأشكانية غير الداخلة في حدود الدولة الرومانية. ولم تكن روما تشك في تفوقها على الشرق حضارة وسياسة. وكان استرابون يُعد البلدان التي تحكمها الدولة الأشكانية (البارثية) "بلاداً آئلة عن قريب إلى الدولة الرومانية". وأما تاستوس Tacitus الذي عاش بعده بمائة عام فلم يأمل هذا، ولكن لم يحسب الشرق المنهزم عدواً خطراً، بل زعم أن الخطر الأكبر على الرومان عند الجرمان في الغرب؛ فإن حب الحرية عند الجرمان أخطر من الدولة الأشكانية. ولكن كان الشرقيون هم المغيرين على بلاد الدولة الرومانية، المستولين عليها قبل هجوم الجرمان بزمن بعيد. قامت الدولة الساسانية في القرن الثالث مكان الدولة الأشكانية التي ضعفت. وفي القرن الرابع أُبعِد الرومان من بحر الخزر نهائيا، وكانوا قد استولوا عليه في زمن بومبي (Pompei). وصارت إيران مزاحمة قوية للدولة الرومانية في زمن الساسانيين كذلك واستولت براً وبحراً على طريق

تجارة الهند والصين ذات الخطر لجميع العالم المتحضر. وبهذا الحادث يبتدئ انتقال التفوق في الحضارة من أوربا إلى الشرق الأدنى، ويتجلى هذا كاملا في عهد المسلمين. إن المسيحية والإسلام ثم مذهب التجديد الأدبي (Humanisme) غيرت آراء الأوروبيين في الشرق مرة أخرى، فصارت معرفة لغة من اللغات الشرقية أمراً محتماً على كل أوروبي مثقف. وكان تاريخ أوروبا وآسيا الدُنيا يعدان قسماً واحداً. فالأفكار الواردة في الكتاب المقدس عن أشور وبابل وإيران ومقدونيا التي تلا بعضها بعضاً، ظلت سائرة في أوروبا كذلك حتى القرن السابع عشر. وبلغت مكانة روما (وتدخل في هذا روما الثانية أيضاً إلى استانبول بعد انقسام الكنيسة إلى قسمين) حالة من اليقين لا تتطرق إليها شبهة، واعتبرت الأحداث المخالفة لهذه الحالة مؤقتة وغير طبيعية. وقد فصل الدين أوروبا عن الشرق غير المسيحي ثم عن المسيحي غير الكاثوليكي. ولكن صار هذا الانفصال التجديد الأدبي الذي أرجع الحالة إلى ما كانت عليه قبل المسيحية. وأما انقسام التاريخ العام إلى ثلاثة أقسام باسم "التاريخ القديم" و"تاريخ القرون الوسطى" و"التاريخ الحديث" منذ القرن السابع عشر، فقد أدى إلى أن يُنظر إلى الشرق كأنه عالم بقي منعزلا عن تأثير الحضارة اليونانية والرومانية في الزمن القديم ثم عن الحضارة التي بدأت بنهضة تلك الحضارة القديمة في الأزمان المتأخرة. فيبدأ الماضي ومعه التاريخ العام بتاريخ اليونان عند أصحاب هذه الآراء. وقد كان بعض علماء اللغات القديمة (كلاسيك) يحاول أن ينكر أن

تاريخ اليونان هو امتداد لتاريخ الشرق القديم حتى بعد استكشافات القرن التاسع عشر.

ولا يرتاب معظم مؤرخي زماننا في وجود حياة مدنية مديدة ذات طبقات مختلفة في الشرق الأدنى ومصر قبل تاريخ اليونان. وهذه الحضارة، كالحضارة اليونانية، لم تتولد من عبقرية قوم بعينهم، بل ولدت وترعرعت تحت تأثير العلاقات الدولية التي كانت في ازدياد مطرد. وبهذا المعنى، يفهم مؤرخ "الشرق القديم" في زماننا من هذا الاصطلاح، الساحات التي تمتد من القوقاز والشرق الأدنى (أوك آسيا) إلى بحر الهند وبحيرات إفريقية؛ وما بين إيران والهند إلى جبل طارق. ويكون تاريخ هذه البلاد وحدة منفصلة انفصالاً تاماً.

ويفهم من هذا التعريف أن بلاد الصين والهند التي هي الممالك الشرقية للعالم القديم حقيقة، لا تدخل في الشرق الأدنى الذي يُعد جزءاً من تاريخ العالم. وقد اتخذ مفكرو أوربا لهذه البلاد اسماً مستقلاً وهو الشرق الأقصى. ويتصدى بعض المفكرين لإثبات أن تاريخ الشرق الأقصى عبارة عن رقي مدني مستقل عن الغرب. وإذ كانت الحضارة الأوروبية وحضارة الشرق الأدنى قائمتين على أساس واحد، فهم يزعمون استحالة الحصول على المواد الضرورية لإتمام النتائج التي أمكن الحصول عليها بتمحيص القوانين التاريخية المأخوذة من تاريخ الغرب إلا بالتدقيق في تاريخ الشرق الأقصى. ولكن قد ثبت في الأزمان الأخيرة أن الهند وقعت في تأثير حضارة الشرق الأدنى (نشأت الحروف الهجائية

السنسكريتية من الشرق الأدنى)، ووقعت الصين في تأثير الهند. ولكن كانت علاقة الشرق الأقصى بالشرق الأدنى أبعد من علاقة الشرق الأدنى بأوربا؛ فيلزم أن تُعد حضارته حضارة مستقلة. وقد دامت التقاليد المدنية القديمة في الصين والهند بدون انقطاع رغم التأثيرات الدخيلة والحركات الداخلية. وأما الشرق الأدنى فلم يوفق إلى قراءة الهيروغليفية المصرية والكتابة الأشورية والإيرانية فيه إلا الأوروبيون.

إن تفوق الغرب بمعناه الواسع (أعني الشرق الأدنى وإفريقيا الشمالية وأوروبا معاً) على الشرق الأقصى يُفسر بكثرة ما وقع من التبدل في النصف الغربي من العالم القديم بالقياس إلى النصف الشرقي منه. وقد انتقلت طرق التجارة من سيطرة الشرق الأدنى إلى سيطرة الأوروبيين، واحتفظ الغربيون بتلك الطرق من عهد الفنيقيين إلى زماننا هذا. وليس للتاريخ علم بأن قوماً خرجوا من الهند أو الصين وحاولوا أن يسيطروا على طرق التجارة الخارجية التي تملكها الممالك الغربية ويدخلوها في سلطانهم السياسي والاقتصادي.

ويمكن أن يُعد اليوم من الحقائق الثابتة أن العلاقات المتبادلة بين الأقوام من أكبر عوامل الرقي. ولا يمكن إيضاح تقدم الشعوب المختلفة أو تأخرها بما لها من ميزات جنسية ومعتقدات دينية أو ما تحيط بها من الطبيعية، بل بموقعها الذي أحرزته في علاقاتها مع شعوب متباينة في مختلف عصور تاريخها. فمهما كانت الأقوام المنسوبة إلى الجنس الهندي الأوروبي متفوقة على غيرها من الأجناس، فإنها لو عاشت عيشة

منعزلة عن الأجناس الأخرى، كحالة اللتوانيين إلى القرن الثالث عشر أو في صورة من المعيشة كمعيشة قبائل ال"كافر" على جبال "هندوكُش" حتى نهاية القرن التاسع عشر، لظلت متوحشة حتى اليوم. ومهما كانت مزايا النصرانية بالقياس إلى الإسلام؛ فإن حضارة العالم الإسلامي ما فتئت متفوقة على الحضارة المسيحية حينما كانت تجارة العالم بأيدي المسلمين. ومهما بلغت مزايا أوروبا في إقليمها وطبيعتها وموقعها الجغرافي بالقياس إلى القارات الأخرى؛ فإن هذه المزايا ما ظهرت إلا بعد أن أخذت أوربا تشغل الدرجة الأولى في العلاقات المدنية. وكذلك الحضارة الإسلامية؛ فإن تقدمها أو تأخرها يثبت بالعوامل التي ذكرت آنفاً أكثر مما يثبت بتعاليم هذا الدين أو بالخواص الجنسية للأمم الإسلامية المختلفة[1].

([1]) بدلا من أن يجعل العوامل الرئيسية في رقي الأمم الجنس أو البيئة الجغرافية أو الدين كبعض العلماء ضيقي النظر الناظرين إلى جهة واحدة، أظهر بارتولد بعقل المؤرخ، عوامل هذا الرقي المختلفة ولاسيما أسبابه الاقتصادية. إننا نشاهد أن هذا المؤرخ الجليل لا يقبل ادعاء بعض العلماء بتفوق الأقوام الهندية الأوروبية أصلاً على غيرهم من الأقوام — وهو ادعاء ليست له ماهية علمية – إلا أننا لا نقدر على المضي بدون تصحيح هفوة صغيرة لمؤلفنا وهي: أن الأقوام الهندية الأوروبية أو الأقوام الهندية الجرمانية –كما يقول الألمان – لا يكونون وحدة بمعناها الأنتروبولوجي Antropologique ولا يدل هذا التعبير إلا على وحدة لغوية. وقد جاءت براهين المؤلف دافعة للنظرات الضيقة التي تحاول أن تجعل الدين الإسلامي مسئولاً عن تأخر الأمم الشرقية في العصر الأخير.

الفصل الأول

الشرق المسيحي وخطورته للإسلام

نشأ مع المسيحية، على رأي توريانف الأستاذ الروسي المتخصص في تاريخ الشرق الأدنى، أسلوب جديد للنظر إلى الدنيا. وشرع هذا الأسلوب في نزاع موفق مع الوثنية اليونانية والرومانية والوثنية الشرقية على السواء، وقبل أن يتم هذا التجديد الذي بدأ في الشرق مع المسيحية، نشأ دين جديد مزاحم له.

ولم ينحصر نزاع المسيحية مع الوثنية في دائرة دينية؛ فقد كان أكثر المبشرين من النصارى يكرهون العلوم والفنون المتصلة بالعقيدة الوثنية. ولم يكن عند نصارى القرن العشرين المؤمنين بقيام الساعة بعد زمن قليل، ما يدعو إلى الاهتمام بشئون الدولة وتقدم الحضارة مادياً وأدبياً.

ومع أن الكنيسة كانت سبباً لسقوط العلم والفن اللذين كانا يُفهمان عند طبقة خاصة، فإنها أفادت من جهة أخرى في رفع مستوى سواد الناس. لقد وزعت الكنيسة الكتب الدينية على أقوام كثيرين بعد أن كتبتها بلغاتهم القومية التي يفهمونها. ومن المعلوم أن الأدب القومي انتشر كثيراً بعد أن كان محصوراً في أماكن قليلة. وكانت الأحوال في

الولايات الآسيوية ومصر أكثر ملاءمة منها في ولايات الدولة الرومانية الأخرى (ولاسيما بعد أن صارت الدولة في أيدي برابرة الجرمان، وزُلزلت بلاد البلقان حتى استانبول بتعرضها لهجمات السلافيين).

وأنشئت في الشرق الأدنى ومصر في عهد الحضارة اليونانية مدن عظيمة كسفت المدن القديمة سعة وعمراناً، فكانت مدينة الإسكندرية بمصر، وإنطاكية بسوريا، وسلوقية، (سلفقية – سلفكه) على شاطئ دجلة، تلي مدينة روما إتساعاً. وشرع مبشرو النصارى في نشر الدين بين طبقات الوطنيين الدنيا المقيمين في المدن الكبيرة التي أنشأها اليونان. ووجدت كتب جديدة مؤلفة أو مترجمة في اللغات المحلية، ولاسيما السريانية والقبطية، مع تأليف كتب دينية باللغة اليونانية الدولية. وبدت الآداب النصرانية في اللغات الأخرى أيضاً مسايرة انتشار النصرانية خارج الإمبراطورية الرومانية (في اللوبية والحبشية في إفريقية؛ والأرمنية والكرجية في آسيا وغيرها من اللغات). وهناك كتب بقيت من القرن السادس تدل على أن اللغة العربية أيضاً استعملت لغة الكنيسة ولكن لم يثبت إلى الآن وجود أدب نصراني عربي في العصور التي قبل الإسلام.

إن انتشار النصرانية فيما بعد ونجاحها الكثير في الحضارة مرتبط بالمنازعات التي كانت بين روما وإيران ارتباطاً وثيقاً. وكان أكثر هذه المنازعات يحدث في حوض دجلة والفرات فكان أمراء هذه المناطق وولاتها ينتقلون إلى هذا الجانب حيناً وإلى ذلك حيناً آخر باختلاف طالع الحرب.

ولمدينة أدسه (الرُّها العربية وأورفه الحالية) الواقعة شرقي الفرات على الطريق الآتية من سوريا الشمالية، موقع ممتاز في تاريخ النصرانية وحضارة سوريا. وكان أبكر التاسع (١٧٩– ٢١٦م) ملك أدسَّه أول من تنصر من الملوك. وتروي أسطورة النصرانية أنه عاش في أيام عيسى عليه السلام وراسله. وأدسه وطن خطير لحضارة سوريا القديمة، ومنشأ الكتابة السريانية. وقد ازدهر فيها في القرن الخامس مذهب يدعى "مدرسة اللاهوت الإيرانية" أثرت كثيراً في انتشار النصرانية وتقويتها في إيران. ومن قبل هذا نشأ في أدسه الكاتب السرياني بردسان (١٥٥– ٢٢٢م). ولد بردسان وثنياً ثم تنصر ثم ارتد إلى الوثنية ثانياً. وحاول التأليف بين الفلسفة الوثنية المسماة الغنوستية Gnosticisme وبين بعض آراء النصرانية؛ وهو أول ممثل لمذهب معاد للعهد العتيق عداءً شديداً. ولا ريب في أن أراءه قد أثرت في المانوية التي ظهرت في إيران في القرن الثالث[١].

---

(١) عانت المسيحية أزمتين كبيرتين في القرنين الثاني والثالث. إحداهما أزمة الغنوستية gnosticisme والأخرى الأزمة المونتانية montanisme. لقد شعر بارتولد بالحاجة إلى إيضاح بسيط للأزمة الأولى لعلاقتها الوثيقة بتاريخ الشرق والإسلام. فالغنوس gnos معناها "المعرفة العالية ذات الأسرار"، وتسمى العقائد الدينية والفلسفية المختلفة التي تتصل بـ "غنوس" الغنوستية. وفي العهد الجديد إشارات ضد هذه المعتقدات التي كانت قبل المسيحية. ومع وجود أسرار مشتركة بين الغنوستيين الذين يؤمنون بوقوفهم على معرفة عالية ذات أسرار لا يطلع عليها غيرهم، فإن هناك مذاهب غنوستية قد نشأت من أصول مختلفة ومتميزة عن بعضها من حيث عقائدها. وتشاهد تحت هذا الاسم مذاهب مختلفة نشأت من الوثنية واليهودية والمسيحية، اختلطت عقائدها بعضها ببعض ونشأت من أصول قديمة جداً؛ فيمكن أن نجد في العقائد الغنوستية كثيراً من العقائد الدينية المأخوذة من ديانات بين النهرين وإيران وفنيقية ومصر؛ فالغنوسي في الحقيقة هو تيوزفي théosophie يحاول إيصال الروح إلى العلاء بإنفاذها من ضيق العالم الجسماني أو الشياطين أو النجوم. وقد أظهر بعض كبار الغنوستيين من النصارى أمثال باسليد Bacilide وفالنتين ومارسيون تطوراً حديثاً في الغنوستية متأثرين بفلسفة اليونان وتصوفهم، ونفوذ العقائد المسيحية، عوضاً عن العناصر الشرقية. فقد أحدث فالنتين مثلاً، مذهباً فلسفياً دينياً ونظرياً متأثراً بالفلسفة الأفلاطونية الحديثة وقريباً جداً من العقائد النصرانية. وفي الجملة فإن ثمة فرقاً شاسعاً بين ثنائية الغنوستيين وثنائية المزديين (أي الزردشتيين)؛ فأما في

واضطر مبشرو النصارى أيضاً إلى استخدام الأدلة الفلسفية في نزاعهم مع الفلسفة الوثنية والفلسفة الغنوستية؛ فظهرت مذاهب دينية فلسفية متنوعة، كان أعظمها في الإسكندرية وإنطاكية؛ فأما المذهب الذي في الإسكندرية فيعتمد على أفلاطون، وأما الذي في إنطاكية فيعتمد على أرسطو. وفي القرن الرابع ابتدأت المنازعات الدينية في بنية النصرانية نفسها، فوقع خلاف بين نصارى الشرق منذ القرن الخامس؛ وقد حدث الخلاف في الكنيسة عندهم قبل نصارى أوربا، فانفصل كثير منهم عن المذهب الأصلي المسمى الأرثوذكسية (يجعله خصومه مشتقاً من كلمة ملك ويسمونه ملكياً ويفهمون الناس أنه مذهب الإمبراطور الرسمي). وافترق اليعاقبة الذين لا يعترفون لعيسى بغير الألوهية، والنساطرة الذين يرون استحالة التفريق بين ألوهيته

المزدية فكلا العالمين المتقابلين أي عالم النور وعالم الظلمة جسمانيان (ماديان) وروحانيان (معنويان) معاً. وأما في ثنائية الغنوستيين فعالم النور معنوي وعالم الظلمة جسماني.

ويجب نقد وتصحيح المعلومات التي سردها بارتولد عن بردسان من بعض الوجوه. لقد تربى هذا الرجل الذي ولد بأورفه (في ١١ تموز سنة ١٥٤م) من أسرة أربيلية، مع الأمير أبكر الذي حكم في أورفه (١٩٩– ٢١٤م) وتنصر مع رعاياه عام ٢٠٦م. ويروى أنه قبل عقائد فالنتين الغنوستية بعد أن تنصر ثم ترك كثيراً منها ورجع إلى العقائد الأرثوذكسية وتوفى سنة ٢٢٢م.

وبناء على التحقيقات الأخيرة لمؤرخي النصرانية الباحثين في هذه المسألة خاصة لا يجوز عده غنوستياً حقيقياً مطلقاً؛ فبناء على رأي ف. ناو F. Nau الذي أبداه في نهاية القرن التاسع عشر تعد عقائده تنجيمية أكثر منها غنوستية. هذا ما يدعيه بعض المراجع القديمة ومن أهمها دعوى أغابيوس Agapius. ويشترك ف. هآس F. Haase وهو أكثر العلماء شهرة بالاشتغال في هذه المسائل بعد F. Nau، في آراء هذا الأخير مبدئياً مع استنكاره لبعض آرائه.

وقد اعتبر بارتولد، الذي يظهر أنه لم يطلع على هذه التمحيصات، بردسان، رجلا غنوستياً كما اشتهر من قبل، وعده ثنائياً متبعاً رأى مؤلف كتاب الفهرس، كما وجد علاقة كبيرة بين عقائده وعقائد المانوية. وهذا التشابه الذي رضي به مؤلفنا قد سبق أن ذكره ماروتا. (انظر في هذا الموضوع M. Ad. Franck في Dictionnaire philosophique طبع باريس سنة ١٨٨٥؛ وكتاب C. Clement المسمى Religions du monde طبع باريس سنة ١٩٣٠ فيما يختص بالنصرانية؛ وكتاب E. de Faye المسمى Gonst. Que et Gnosticisme طبع باريس سنة ١٩٢٥، وفي هذا الكتاب الأخير معلومات واسعة عن المراجع. وانظر مادتي Bardesane وBardesanttes في الجزء الذي ظهر سنة ١٩٣٠ من كتاب Dictionnaire d'histoire et de géographie ecclésiastique.

وإنسانيته وكون مريم أم الله. وارتحل النساطرة الذين تعرضوا للاضطهاد إلى إيران، وكان النصارى مضطهدين في إيران حتى هذا العهد.

وفي عام ٤١٠ وفقوا لعقد مجلس في مدينة سلوقية الواقعة على شاطئ دجلة. وقبل نصارى إيران معتقدات النساطرة في اجتماع ديني عقد سنة ٤٨٣م. وفي عام ٤٨٩ هرب نصارى أدسَّه إلى إيران. وكان الإمبراطور زينو Zeno أغلق المدرسة الإيرانية التي كلفت بأدسه بسبب الآراء النسطورية. وصارت إيران في عهد الساسانيين في القرن الخامس ملجأ لجميع العناصر المتحضرة المطرودة من بوزنطة من المجوس واليهود وروافض النصارى. وقد حمل الساسانيون من قبل هذا كثيراً من السوريين المقيمين بمدن سوريا إلى إيران. نُقل في المرة الأولى سكان إنطاكية وبعض مدن أخرى في زمن شابور الأول (٢٤١- ٢٧٢م) الذي أسر الأمبراطور فلريان Ya'ćrien فأسكنهم شابور في مدينة جنديسابور التي أنشأها في خوزستان. ولم تكن جنديسابور مدينة كبيرة في زمن الساسانيين. وأسست فيها في عهد خسرو الأول (كسرى أنو شروان ٥٣١- ٥٧٩م) مدرسة طب يونانية سورية لها فيما بعد تأثير في العرب.

وكانت الغاية من حمل سكان المدن السورية إلى إيران كأنهم أسرى أن يعاونوا ترقية الصناعة في إيران، ولاسيما صناعة النسيج. وقد استفاد الساسانيون من صناع روما المأسورين أيضاً في إنشاء الحصون وتنظيم أعمال الري.

تؤدي المقارنة بين بوزنطة وإيران الساسانيين من القرن الخامس إلى السابع إلى هذه النتيجة: إن مستوى الحضارة في بوزنطة أعلى ولكن كانت إيران مملكة ترق أكثر منها. ولم يكن هذا الترقي ملائماً لأغراض الملوك ملاءمة تامة. ولترقي الساسانيين في القرن الثالث علاقة برد الفعل الديني والسياسي. إذ أن دخول الحضارة الغربية فيها كان يقلق دين الدولة ويؤثر في نظام الطبقات. وقد نشأ في إيران مذهب نصراني رسمي استخدم اللغة الفارسية في العبادة. وكان لهذا العمل تأثير في دخول النصرانية في آسيا الوسطى والصين وفي مستقبل إيران. ولا تزال أسماء الأيام التي أدخلها الفرس النصارى – لا العرب – مستعملة إلى اليوم عند الإيرانيين المسلمين.

وحوالي نهاية القرن الرابع تغير نظام الطبقات تغيراً تاماً فاتحد الزارع والصناع والتجار، ونشأت منها طبقة ثالثة وهي طبقة العمال المدنيين التي شغل رؤساؤها مكاناً إلى جانب عرش الملك مع الرؤساء الروحانيين ورؤساء الارستقراطية العسكرية.

وبدأت حملات الجماعات الشعبية تمتد إلى مدى أبعد فتحبذ، ضد نظام الطبقات الضيق، الآراء المزدكية الشيوعية التي لا تكتفي بإنكار الملكية الخصوصية فحسب بل تنكر الأسرة كذلك[١].

---

(١) انظر فيما يختص هذه المسائل والمزدكية كتاب A. Christensen المسمى L'Iran sous Sassanides طبع كوبنهاجن سنة ١٩٣٦؛ وكتاب le Règne du roi Kawàdh I et le Communisme Mazdakite للمؤلف نفسه.

إن القرن السادس الميلادي الذي هو عصر انحطاط التقاليد البوزنطية على وجه عام، كان عهد التعارف بين الإيرانيين والأدب والعلم الأجنبيين. وفي هذا العصر ترجم إلى الفارسية قصص كليلة ودمنة التي أحضرت من الهند، وأثرت في آداب العالم. وابتدأ البحث في فلسفة اليونان في إيران. وقدم فارس بول إلى خسرو الأول كتابه عن أرسطو باللغة السريانية وهو يحاول في هذا الكتاب إثبات تفوق العلم على الدين؛ فالعلم في نظره بعيد عن الشبهة ومنتج للاتفاق والوئام بين الناس بينما يبحث الدين في أمور مجهولة ويوقع الشقاق بين الناس.

وبلغت التجارة والصناعة في أيام الساسانيين أوجهما في القرن السابع قبيل هجوم العرب. وفي هذا العصر أيضاً كتبت آداب المانوية والنصرانية باللغة الإيرانية المستعملة في آسيا الوسطى (الصغدية) والتركية. كل هذا يدل على أن دعاية دينية قوية وقد انتشرت من إيران. وينبغي أن نذكر أن المبشرين اقتفوا أثر التجار. وفي هذا العهد نفسه ظهرت جاليات فارسية ونصرانية في الهند.

وقبل فتوح العرب استمرت حروب بين بوزنطة وإيران مدة طويلة (٦٠٤– ٦٣٠) وانتقلت جميع ولايات بوزنطة الأسيوية ومصر إلى حكم إيران لمدة قصيرة. وكان والي إيران، حاكم هذه الولايات، يقيم في الإسكندرية التي أضرت بها الحرب أقل مما أضرت بمدن سوريا. وقد أخذت أنطاكية في الانحطاط منذ القرن السادس من جراء الزلزال الشديد الذي وقع في سنة ٥٢٦م، وهجوم الإيرانيين في عام ٥٤٠.

وعمرها الإمراطور جوستنيانوس ولكنها لم تستطع أن تسترد مكانتها القديمة، ودمر الإيرانيون مدن سوريا في القرن الخامس وقطعوا أشجار الزيتون وبقيت آثار التخريب ظاهرة فيها بعد مائة عام. ولا بد أن تكون آسيا الصغرى قد أصابها الضر كذلك من استيلاء الإيرانيين عليها حينما توغلوا حتى استانبول. ولما مال طالع الحرب إلى الإمبراطور هرقل خربت حدود إيران من هجمات البوزنطيين وحلفائهم الخرز بتلك الصورة نفسها. ولم تكتف معاهدة الصلح بأن أعادت إلى بوزنطة بلادها التي أخذت منها، بل أكسبتها بلادا جديدة فيما بين النهرين[1].

سببت هذه الهزائم سقوط كسرى برويز (خسرو الثاني) ٦٢٨م واضطرابات طويلة داخلية في إيران، ولكن بوزنطة ضعفت أيضاً

([1]) إن هرقل الذي حارب الساسانيين في أعوام ٦٢٢– ٦٢٨ الميلادية ثلاث حروب موفقة انتصر عليهم في أواخر سنة ٦٧م بجوار الموصل نصراً مبيناً وترتب على هذا الانتصار إمضاء الصلح بعد خلع خسرو وقتله وانتقلت سوريا وفلسطين ومصر إلى سلطان بوزنطة مرة أخرى، ونال هرقل لقب باسيلوس رسمياً للمرة الأولى (٦٢٩م)؛ وهذا اللقب لم يعد يحمله بعد هذا التاريخ ملوك الساسانيين الذين كان لهم حق حمله بتصديق من البوزنطيين. وإن هذا الحادث الذي ورد ذكره في القرآن الكريم أيضاً، لأحد الأحداث الخطيرة في القسم الأول من القرون الوسطى إذ قد أوشكت أن تنهار إحدى القوتين اللتين ظلتا متصارعتين قروناً عديدة للحصول على التفوق في السيطرة على الشرق.

هذا وقد أخذت في الانهيار بسرعة دولة الترك الأورية التي كانت تهدد حدود بوزنطة عند نهر دانوب. وهكذا ظهرت بوزنطة في ٦٢٩م كأكبر قوة سياسية وعسكرية في الشرق الأدنى بدون مزاحم، إلا أن حادثاً غير منتظر، وهو ظهور الإسلام والسيطرة العربية، انتزع من يد هرقل ثمرات انتصاره على إيران في السنين الثمانية الأخيرة من حكمه. (انظر A. A. Vasiliev في كتابه Histoire de l'empire byzantine طبع باريس سنة ١٩٣٢ ج١ ص٢٦٠– ٢٦٤–؛ ٢٧٥– ٢٧٩، ، وشرحت هنا العوامل التي تسهل فهم هذا الاستيلاء الذي ظهر في الوهلة الأولى معجزة لعدم الاطلاع على أحوال بوزنطة الداخلية، وذكرت بحوث خطيرة في هذا).

بالحروب. وبدأ اضطهاد الوثنيين واليهود والروافض باستتباب الحكم البوزنطي في البلاد المستردة؛ فصار هؤلاء المضطهدون جميعاً حلفاء طبعيين للعرب. واضطر البوزنطيون حتى في حياة هرقل الذي مات سنة ٦٤١م إلى التخلي للعرب عن جميع الأراضي التي استولوا عليها ما عدا آسيا الصغرى. ولم يقاوموهم مقاومة حسنة إلا في أماكن قليلة. وفتحت مصر قوة مؤلفة من أربعة آلاف جندي، كما أن سهولة الاستيلاء على شمالي ما بين النهرين حيرت الفاتحين أنفسهم.

إن أظلم عصور الأدب البوزنطي والديانة المسيحية هي العصور التي بين أوائل القرن السابع ومنتصف القرن التاسع. وقد ألف الناس عزو أسباب هذا الانحطاط إلى حروب بوزنطة مع الإيرانيين والعرب والثورات التي أعقبتها مباشرة. ولا ريب في أن خروج أرقى الولايات من حكم بوزنطة لم يكن خالياً من التأثير على حياتها. وقد اتسعت حدود الخلافة نحو آسيا الصغرى رويداً رويداً وتعرض شبه الجزيرة هذا الذي أنجب في القرن السادس النابغين الذين بنوا آيا صوفيا، لعدة هجمات مهلكة.

وكانت البلاد التي دخلت في حدود الخلافة خيراً منها حالا رغم الفتن التي فيها، وكان النصارى أحسن حالا تحت حكم المسلمين في الأزمان الأولى، لحاجة الفاتحين إلى هذا العنصر المسيحي المتفوق على العرب حضارة. وقد نبغ في مصر وسوريا وما بين النهرين رجال علم وأدب من الطراز الأول في الآداب السريانية واليونانية في القرن الأول الإسلامي. وليعقوب الأدسي (٦٤٠- ٧٠٨م) الذائع الصيت من بين

أولئك العلماء مكانة خاصة ممتازة في المذهب اليعقوبي. وصارت شواطئ الفرات بعد استعادة مكانتها القديمة إحدى مراكز حضارة العالم. وقد كانت فيها مدارس عليا لليهود والمانويين زيادة على مدارس المسيحيين العليا. إن الشعوب التي عاشت في حكم المسلمين، استفادت في نشر الدين من العلاقات التي اتسعت بتكون الدولة الإسلامية الممتدة على قسم كبير من العالم، أكثر من المسلمين أنفسهم، كما أن انتشار النصرانية والمانوية في بلاد المغول، واليهودية والنصرانية في القوقاز وشواطئ فولجا يعود إلى العصر الإسلامي.

وليست خطورة هذا العهد من حيث الفن المسيحي واضحة كثيراً، ومما لا شك فيه أن ملوك المسلمين استخدموا المهندسين من المسيحيين والإيرانيين في بناء القصور والمساجد. وحوّلت بعض الكنائس الكبيرة إلى جوامع. ومن تلك الجوامع، الجامع الكبير الذي بني في القرن الثامن في مكان كنيسة يوحنا المعمدان بمدينة الشام. ومن حسن الحظ أن هذه الكتابة الإغريقية المنقوشة على الباب الجنوبي للكنيسة باقية إلى اليوم وهي "يا مسيح، إن سلطنتك لكل زمان وحكمك لكل جيل"، وقد حافظ النصارى في الجملة على معابدهم، وبنوا كنائس وأديرة جديدة بدون أن يتعرضوا لمقاومة. وأما ما يقال من أن الخليفة عمر منع النصارى من بناء كنائس جديدة وإصلاح الكنائس القديمة فمختلف فيما بعد.

وكانت في بلاد الخلافة الممتدة من رأس سان فنسنت الواقعة جنوبي البرتغال إلى سمرقند مؤسسات مسيحية غنية، قد حافظت على أملاكها غير المنقولة الموقوفة عليها. وكان نصارى بلاد الخلافة يتعاملون مع عالم النصرانية بدون مشقة، ويتمكنون من أن يتلقوا منهم إعانات لمؤسساتهم الدينية. وكان في المؤتمر الديني الذي انعقد في القسطنطينية في سنة ٦٠٨– ٦٨١م مندوب من القدس أيضاً. ثم إن المسيحيين المقيمين ببلاد الخلافة كانوا مرتبطين بعضهم ببعض ارتباطاً وثيقاً. ولم يزدهر الفن في أزمان الفتوح إلا في مصر. وقد بحث الخلفاء عن وسائل ترقية الفن في سواحل عكا وصور خاصة. وقبيل سنة ٧٢٠م عادت الفلسفة اليونانية من الإسكندرية إلى أنطاكية.

وعاون النصارى المسلمين، منذ النصف الأخير من القرن الثامن، على دراسة الفلسفة اليونانية. ويروي أن الخليفة المنصور (١٣٥– ١٥٨هـ = ٧٥٤– ٧٧٥م) طلب إلى الإمبراطور أن يرسل إليه مخطوطات في العلوم الرياضية. وقد أقام حنين بن إسحاق أحد أكابر المترجمين من اليونانية إلى السريانية، نحو سنتين في بوزنطة، وتعلم اللغة اليونانية وأدبها ثم رجع منها بمخطوطات. وكان للمسلمين طريق آخر غير بوزنطة لتلقي العلوم اليونانية وهو مدرسة الطب التي بجنديسابور (شابور) والتي بقيت قروناً عدة بعد فتح المسلمين. وهناك مع هذا رواية تدل على حفظ أطباء جنديسابور لعلومهم بواسطة رجالهم جيلا بعد جيل وإخفائها عن الأجانب. وأما تيوفيلوس الفلكي الرهاوي (الأدسي) الذي

أقام في قصر المهدي (١٥٨- ١٦٩هـ = ٧٧٥ - ٧٨٥م) وترجم الألياذة والأدسة إلى اللغة السريانية فلا يُعلم أأقام في بوزنطة أم لم يُقم.

إن العناصر غير العربية وغير الإسلامية من العناصر المقيمة في بلاد المسلمين، كانت أكثر تنوراً بالقياس إلى العرب والمسلمين. وإدراك هذه العناصر تفوقها على العرب حضارة أنتج بعض آراء قومية في العالم الإسلامي عرفت باسم الشعوبية. وكانت الحملة القائمة على هذه الصورة لإنهاض الحضارات القومية أو الدينية ظاهرة على هذه الشاكلة في الأمم الأخرى: بين النصارى المؤلفين من أقوام مختلفة، واليهود والإيرانيين الزردشتيين، وعند آخر الممثلين للوثنية الإغريقية في مدينة "حران" فيما بين النهرين. وكان القرن التاسع عهد رقي لحضارة بوزنطة أيضاً، إلا أن بلاد الخلافة كانت متفوقة على بوزنطة في أن العناصر المختلفة كانت تعمل فيها جنباً لجنب، وكانت ساحة انتشار الحضارة أوسع، لضروب من الحرية الدينية التي يمنحها القرآن. ومع ذلك لم يكن سعي كل فريق منهم لإنهاض شعبه ودينه مانعاً من تلقي دروس الحضارة بعضهم من بعض؛ فكان للنصراني طلبة من المسلمين والمجوس كما كان عكس هذا. إن النصارى كانوا أقرب إلى الإغريقية (هلنيزم) منبع العلم، إلا أنهم لم يثابروا على المحافظة على تفوقهم هذا. فقد استأنسوا بالمؤلفات اليونانية قبل المسلمين وأجادوها أكثر منهم، غير أن ترقية هذا العلم وإبداع نماذج للدراسات العلمية من بَعد، استأثر به المسلمون؛ فلم يقدر السريانيون، وهم أرقى الشعوب النصرانية في الشرق، على أن ينجبوا

عالماً واحداً يصح مقارنته بالفارابي وابن سينا والبيروني وابن رشد. وكان المسلمون في أكثر الأحيان من خير طلبة علماء النصارى والوثنيين.

وبتقدم الحضارة العربية فقد نصارى سوريا علاقتهم بالإغريقية التي كانت ضامنة لتفوقهم سابقاً؛ فأعطيت اللغة العربية وأدبها في برنامج تعليمهم العالي مكان اللغة الإغريقية وأدبها فيما سبق.

ولكن لا ينبغي أن يظن، نظراً إلى هذه الحال، أن الحياة النصرانية المدنية الشرقية فقدت خطورتها وتأثيرها في سير حضارة العالم بعد ازدهار الحضارة الإسلامية؛ فإن تفوق المسلمين في العلم والعمل ظل مدة طويلة تفوقاً في الكيفية لا في الكمية؛ فكانت الأعمال الفكرية كالكتابة والطبابة في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي لا تزال في أيدي النصارى، وكانت التجارة والصناعة في أيدي اليهود. وتفاهمت المذاهب المختلفة في سوريا في القرن الثاني عشر، فحدث تقارب بين مذهبي النساطرة واليعاقبة وهما أكبر هذه المذاهب شأناً؛ فأخذ كل منهما يتسامح مع الآخر بالرغم من محافظة كل واحد منهما على معتقداته وعباداته.

وأخذت حالة النصارى التابعين للدول الإسلامية تسوء منذ منتصف القرن الثالث الهجري. وكان إحدى أسباب هذه الحالة تناقص حاجة المسلمين إلى النصارى بتقدمهم في الحضارة، وربما كان للاضطهادات التي وقعت على المسلمين واليهود في بلاد النصارى في القرون

الوسطى، أثر في هذا. ومهما يكن من شيء فإن النصارى الذين عاشوا في حكم المسلمين لم يصبهم قط ما أصاب المسلمين في أسبانيا من الظلم والعدوان. ولم يكن، بوجه عام، يُطلب إلى الأقوام غير الإسلامية تنفيذ الشروط حرفياً كارتدائهم ثوباً مميزاً لهم طبقاً لما ورد في عهد عمر المشهور، أو دفعهم الجزية كما يأمر به القرآن. فكان العمال النصارى يلبسون أثواباً كأثواب عظماء المسلمين، ويجعلون لأنفسهم مقاماً عالياً أمام العامة. وكانت مغالاة النصارى وترفعهم على هذه الصورة تسبب ارتفاع الأصوات بالاستنكار، وتصل أحياناً إلى نهب أموالهم، بل قتل بعضهم. وفي خلال الشغب تُهدر حقوق الذميين أكثر من حقوق المسلمين؛ ففقدت الكنيسة رويداً رويداً عقاراتها وهي أعظم ثروتها. وكانت الكنيسة في مصر تلك القرن الثامن الهجري (الرابع عشر م) ٢٥٠ و١١ فداناً من الأرض وذلك بعد مصادرات عديدة. اختفت النصرانية من بلاد إيران اختفاء تاماً إلا في الزاوية الغربية القصوى، وكيفية هذا الاختفاء مجهولة إلى الآن.

لم تختف النصرانية أوّلَ الأمر اختفاء تاماً إلا في إفريقية الشمالية، في البلاد الواقعة غربي مصر من البلاد الداخلة في حدود الإمبراطورية الرومانية، إلا أن أسماء البلاد الباقية من العهد اليوناني والروماني ظلت محفوظة (مثل طرابلس وهو اسم Tripoli ومقاطعتها وقُسنطينة في الجزائر Constantin. وليس سبب اختفاء النصرانية في هذه البلاد أيضاً واضحاً.

ويمكن تفسير ذلك بعض التفسير بأن تعرض شمال إفريقية لهجمات العرب كان أكثر من تعرض البلاد الأخرى. وكذلك تعرضها لغارات البدو في منتصف القرون الوسطى (فإن مدينة قرطاجنة التي أعاد الرومان بناءها والتي صارت، على رواية إحدى المدن الرومانية المهمة بعد روما، دمرها العرب في القرن السابع ولم تستطع النهوض بعد ذلك).

إن البلاد التي رجعت إلى حكم المسيحيين بعد الفتح الإسلامي والتي لم تزل محافظة على آثار الحضارة الإسلامية، لجديرة بأن يبحث في تاريخها بحثاً مستقلاً. هذه البلاد هي إسبانيا التي كانت لملوك قشتالة، والتي ألف فيها ألفونس العاشر في منتصف القرن الثالث عشر جدول الهيئة المشهور؛ وصقلية وجنوب إيطاليا التي كانت في أيدي النورمانديين ثم صارت إلى أسرة هوهنشبتوفن؛ ومملكة الكرج في القرون الثلاثة من القرن الحادي عشر إلى الثالث عشر. وأما بلاد أرمينية والكرج فقد ألفتا في القرن السابع هيئتين مختلفتين وحافظتا على علاقاتهما بالعالم اليوناني بالتأثير الديني ولكنهما لم تنجوا من تأثري الحضارة الإسلامية (العربية والفارسية)؛ فإن كلا من الأدب الأرمني والأدب الكرجي يمت بقرابة إلى الأدب الفارسي[1]. وقد حافظ أفراد

([1]) تأثر الكرج والأرمن بعد الإسلام والعرب والفرس أولا ثم تأثروا بالأتراك تأثراً شديداً. ولكن لم يميز الباحثون في هذا الشأن إلى اليوم تأثير الفرس من تأثير الترك بل أسندوه إلى إيران أيضاً، في حين أن هذا التأثير ظاهر بوضوح في اللغة والأدب وفي شعب الفنون الجميلة المختلفة وفي نظام الدولة منذ ظهور الدولة السلجوقية الكبرى حتى اليوم، وليست قصة "الفارس ذو الفروة النمرية" المشهورة التي ألفها شوتا روستافلى شاعر الكرج الأعظم في القرون الوسطى متأثرة بإيران فقط بل هي متأثرة بالترك أيضاً. وانظر في

الشعب في الجملة، بالرغم من عدم ملاءمة العوامل المحيطة بهم كثيراً، على تقاليدهم الدينية وبعض تقاليدهم الحضارية محافظة قوية حتى بعد فقدهم الاستقلال السياسي. وفي القرن السابع عشر نقل الشاه عباس كثيراً من الأرمن والكرج عنوة لأغراض حضارية كما فعل الساسانيون بالسوريين قبلاً. وقد أخذ الأرمن يتقربون من الحضارة الأوربية في القرن السابع عشر؛ وأما الكرج فأحسوا بتأثيرها في القرن الثامن عشر.

ورأى الأوروبيون المقيمون في سوريا ومصر مسيحيي هذه البلاد حلفاءهم الطبيعيين؛ فأقاموا في أديرتهم زمناً طويلاً وتعلموا اللغة العربية، استعداداً للتعارف مع الشعب والبيئة عن كثب؛ فلذا نشر وترجم في أوروبا في القرن السابع عشر كتب المكين وأبي الفرج مؤرخي القرن الثالث عشر من نصارى العرب قبل نشر المؤرخين المسلمين.

وفي الوقت نفسه بدأت نهضة أدبية في نصارى العرب بتأثير أوربا، كما حدث عند الأرمن، لأنه لم يكن يفصل النصارى الشرقيين من الغرب اختلاف كاختلاف الدين الشاسع الذي يفصل المسلمين عنهم. ثم إنهم لم يكونوا قد تأثروا كثيراً بالأدب القومي غير الديني؛ فلذا راج فيهم أدب اليونان، لا علمهم فقط، إلى حد ما، بعكس ما عند المسلمين سواء في القرون الوسطى وفي العصور الحديثة. وقد ترجم سرياني نصراني كتابي الإلياذة والأودسا في القرن الثامن، وأما العربي النصراني فنقل الإلياذة إلى

تأثير الأدب التركي في الأدب الأرمني مقالنا (تورك أدبياتنك أرمني أدبياتنه تأثيري، أدبيات فاكولته سى مجموعه سى، عدد ١ ص١– ٣٠ طبع استانبول سنة ١٩٢٢).

العربية في القرن التاسع عشر. قال أحد علماء الروس إذ عاد من سوريا سنة ١٨٦٤م: "إن نصارى الشرق متقدمون في العلم تقدماً لا بأس به بالقياس إلى المسلمين".

ويقول أحد مؤرخي الأديان من الروس وهو يحكي ما حدث في زمن الحروب الصليبية: "إن الروحانيين والشعب يرون عودة ظلم المسلمين خيراً لهم من الحياة في حكم اللاتينيين". وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر التمس أرمن "أجماجين" من شاه إيران مرات عديدة حمايتهم من الدعاية الكاثوليكية. وأما تأثير الضغط الاقتصادي الذي يقوم به الأوروبيون في وقتنا هذا فيظهر في المسيحيين كما يظهر في المسلمين. وقد كتب صحافي مسيحي في سنة ١٩١٢ مقالا في الصحف العربية رداً على مقال كتبه أحد كتاب المسلمين محبذا اتحاد المسلمين فقال: "يجب أن يتحد ضد الأوروبيين جميع الأقوام الشرقية بدون النظر إلى الفروق الدينية، لا المسلمون فقط. ويجب أن نعمل للوحدة الشرقية لا الوحدة الإسلامية". وأخذ المثقفون في الشرق الأدنى كذلك يقدمون الاتحاد القومي على الاتحاد الديني متأثرين بالآراء الأوروبية؛ فمن المحتمل أن يتحقق منذ الجيل الحاضر اتحاد العرب المسيحيين مع العرب المسلمين للتعاون على نهضة القومية العربية. ويستعمل أمين الريحاني، أحد كتاب العرب في زماننا، عبارات للتعبير عن معتقدات المسلمين والنصارى وكتبهم المقدسة يعسر فيها معرفة الكاتب أمسلم هو أم مسيحي.

الفصل الثاني

الخلافة ومبدأ الحضارة العربية

نشأت في العالم في القرن السابع دولة عظيمة من شبه جزيرة العرب للمرة الأولى والأخيرة في التاريخ، وبدأت حركة جديدة. ولكن يُظن أن الساميين تدفقوا من جزيرة العرب بهذه الصورة في عهد سابق للتاريخ وشغلوا سوريا وما بين النهرين، وقد مُهد لحركة القرن السابع بحركات العرب الصغيرة التي امتدت من قبل خارج شبه الجزيرة ولكن لم تبلغ درجة الفتوح. وكانت البلاد الواقعة شرقي الفرات أسفل مصب نهر الخابور تسمى بلاد العرب منذ عهد قرطاجنة حوالي سنة ٤٠١ قبل الميلاد. كما أن المدن القبطية في مصر العليا كانت نصف عربية منذ زمن استرابون حتى القرن الأول الميلادي. وقد اشترك عرب سوريا التابعون لبوزنطة وعرب حوض الفرات التابعون لإيران اشتراكا قوياً في الحروب التي وقعت بين هاتين الدولتين.

وفي القرن السابع والقرن الثامن أدخل العرب تحت سلطانهم أقواماً كثيرين يفوقونهم حضارة إلى درجة لا تقبل القياس، إلا أنهم لم يفقدوا قوميتهم كما فعلت الشعوب الجرمانية في أوروبا والمغول في آسيا. بل أكثر من ذلك، قد أدخلوا سوريا وما بين النهرين ومصر وإفريقية الشمالية من البلاد التي استولوا عليها، في قوميتهم. ولم تكن غلبة اللغة

العربية بعد ذلك بسلطان الحكومة بل بالاختيار. وقد اضطرب نظام الخلافة المالي اضطراباً شديداً بانتشار الدين الإسلامي في البلاد التي خضعت لسلطانها.

وكان انتشار اللغة العربية في الأقوام غير الإسلامية أمراً لا ترغب فيه الحكومة كثيراً؛ فمنع تكلم النصارى اللغة العربية وتعلم أولادهم في مدارس المسلمين. ورغم هذه الحال صار الإسلام ديناً رغب فيه أكثر الشعب، واتخذت الشعوب غير المسلمة اللغة العربية لغة لها.

ويمكن تفسير رواج اللغة العربية هذا الرواج بأن العرب لم يعتمدوا على قوة السلاح فقط كالجرمان والمغول والإيرانيين القدماء، ولكنهم نشئوا منذ القرن السابع الميلادي لغة أدبية متقدمة في ساحة الفكر تقدماً واضحاً؛ وأخذت البلاغة والشعر مكانة عظيمة عندهم واختُرعت الأشكال الأدبية المعلومة اليوم، والنثر المسجوع وأنواع عديدة من الأوزان، واتخذت المنظومات أساليب معروفة؛ فراج قرض الشعر كثيراً لمدح أبطالهم وقبائلهم وذم أعدائهم. وكان يقابل شعر البدو، شعر خاص بأهل المدن أرق من شعر البدو. وكانت قريش مكة أرقى القبائل في هذا. وإن تكن قريش مكة وثقيف الطائف وغيرهم من أهل المدن قد أظهروا عداوة لمحمد (صلعم) في بادئ الأمر، فإنهم صاروا على رأس جماعة المسلمين بعد أن قامت الدولة، وأسندوا إلى محمد حديث "الإمامة من قريش". وترأس القرشيون في إنشاء المدن وتنظيم الإدارة في البلاد المفتوحة، وكان العرب من سكان المدن يتعقبون أثر الجيش العربي

عموماً، فهم الذين قاموا بأجل خدمة في تقوية القومية العربية في البلاد التي فُتحت.

وقد نشأت أصول المدن الإسلامية من امتزاج التقاليد المحلية – كما في جميع ساحات الحياة الحضارية الإسلامية – حاول بعض الرحالين من الأوروبيين تعليل بناء البيوت في المدن الإسلامية داخل ساحة الدار، وجعل الواجهات المقابلة للشوارع جدرانا وحوانيت بأنه ناشئ من خوف "الاستبداد الشرقي". ولكن أثبتت حفائر مدينة "بومبئى" أن المدن اليونانية القديمة أنشئت على هذه الصورة نفسها. وقد دهش عدة من الأوروبيين الذين وفقوا لزيارة مكة إذ شاهدوا بيوتاً تُطل نوافذها على الشوارع على نسق المدن الأوروبية. وفي مدن اليمن بيوت كبيرة مزخرفة لفتت نظر السائحين ولكن لم يُعلم إلى الآن هل هي بُنيت على التقاليد المحلية أو على التقاليد الهندي الدخيل.

وقد حافظ العرب زمناً طويلاً على حياة العشيرة والقبيلة حتى بعد انتقالهم إلى الحياة الحضارية؛ فكانت العلاقة بين رجال قبيلة واحدة أوثق من العلاقة بين سكان مدينة واحدة. وإذا فُتحت مدينة أنشئت أحياء خاصة بكل قبيلة؛ فوجود جدران ذات أبواب بين الأحياء بل بين الشوارع في كثير من المدن كدمشق، متصل بفهم العرب للحياة هذا الفهم. وقد حمل العرب هذه العادة إلى إيران أيضاً؛ فإن تأسيس مدينة مَرْو مثلا في القرنين الرابع والخامس الهجريين (الحادي عشر والثاني عشر) كان على هذه الصورة نفسها. وليس لمدينة همذان في زماننا، سور

عام يحيط بها، ولكن بها أبواب بين أحيائها تُقفل ليلاً، وتوجد مثل هذه الأبواب حتى في الحارات التي حول المدينة.

ولم ينشئ العرب مدينة جديدة في سوريا في القرن السابع الميلادي، وأنشئت في القرن الثامن في زمن الخليفة سليمان (سنة ٩٦– ٩٩هـ = ٧١٥– ٧١٧م) مدينة الرملة على الطريق الممتد من القدس إلى البحر. فانتقلت الحياة إلى المدينة الجديدة بالرغم من مكانة القدس الدينية عند المسلمين، وظلت قروناً عديدة مدينة فلسطين الرئيسية، إلا أن مكانة الرملة كانت محلية؛ فلذا لم يظهر لها أثر كبير في ازدهار الحضارة العربية التاريخية. وظلت دمشق القديمة مركزاً للحياة الحضارية والسياسية في سوريا. ولم تكن حالة المدينة في ذلك الوقت مما يمكن مقارنتها بعواصم اليوم؛ فإنها لم تمتد خارج الأسوار المبنية بالحجارة إلى النصف الأخير من القرن العاشر. وكان طول الشارع "المستقيم" الممتد من الباب الشرق إلى الباب الغربي ما يقرب من كيلين. والمسافة من الباب الشمالي إلى الباب الغربي كانت أقصر منه قليلا. وكانت وسط المدينة ساحة واسعة بها معبد ضخم (كان هذا المعبد للوثنيين ثم صار للنصارى ثم للمسلمين)؛ فها هنا كانت كنيسة يوحنا المعمدان التي اضطر النصارى إلى التخلي عنها للمسلمين في عهد الوليد الأول (سنة ٨٧– ٩٧هـ = ٧٠٥ – ٧١٥م)، وبُني مكانها جامع بني أمية المنقطع النظير في العالم الإسلامي في زخرفته. وكان بقرب الجامع قصر بني أمية الذي اختفى في القرون الوسطى.

وكانت المدن التي أسست لتكون معسكرات، كالجابية ودابق (شمالي حلب) تشغل في سوريا مكانة في الدرجة الثانية بعد دمشق. على أن بعد الأماكن من هذا النوع بلغ درجة المدن الكبيرة وفاقت المدن المركزية القديمة. ومن تلك المدن القاهرة؛ فقد بناها العرب أولا معسكراً على ساحل النيل باسم الفسطاط (فساتون Fossaton باليونانية واللاتينية ومعناها المحاط بخندق). وكانت تشغل على ساحل النيل الشرقي مكاناً طوله خمسة أكيال في عرض كِيل واحد، وفي وسط الشارع ميدان به مسجد عمرو الذي يحمل اسم فاتح مصر، ودار القضاء. ومدينة القيروان الخربة في تونس؛ والكوفة على الفرات، والبصرة على حافة شط العرب، وشيراز في إيران، كلها أنشئت لتكون معسكرات كذلك. وأما المدن التي أسست لغير مقاصد عسكرية فكانت أطول أعماراً، كمدينة فاس مثلاً، أنشئت في القرن الثاني الهجري (نهاية القرن الثامن الميلادي)، ومدينة كنجه في القوقاز، أنشئت في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي). ولا نجد في التاريخ دليلاً على ترك العرب للمدن التي نشأت من المدن المبنية للجيش بعد تخريب المدن المنشأة قبل الإسلام إلا مرة واحدة، وذلك أن قلعة بروقان الواقعة جنوبي جيحون استبدلت بها مدينة بلخ (بكتريا القديمة).

وقد ساعد العرب في إيران وتركستان على تقدم حياة المدن كما ساعدوا على تغير أصول المدن. وكانت مدن هذه البلاد تؤلف من قلعة كبيرة تدعى "دِز" ومدينة أصلية تدعى شهرستان. ومعنى شهرستان مقر الحكم وهو نفس المعنى الذي تدل عليه كلمة الـ"مدينة" التي أخذها

العرب عن سوريا. ولم يكن ميدان التجارة داخل المدينة، بل خارجها بجانب الباب. وتدل على ذلك كلمة "بازار"، ومعناها عمل بجانب الباب، التي دخلت في اللغات الإيرانية والسامية الحديثة من اللغات الأجنبية. وأما في زمن العرب فانتقلت الحياة رويداً رويداً إلى الأحياء التي يقيم فيها الصناع والتجار في الشهرستان. وبنيت هنا أيضاً مدن على نظام مدن الشرق الأدنى، رويداً رويداً. وهذا النظام هو: أن يمتد السوق بجانب الشارعين الكبيرين اللذين يقطعان المدينة من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب، وفي وسط المدينة ميدان فسيح به أكبر مساجد المدينة. وقد تتبعَ التجار المسلمون أثر التجار اليهود والنصارى الذين سبقوهم؛ فانتقلت الحياة في مَرْو في أيام المسلمين وكان من الشهرستان إلى الحي الواقع على حافة نهر "مَجَان"، غربي المدينة. وفي هذا المكان نفسه عاش مطران النصارى قبل المسلمين. وكان في موضع أصفهان، وهي أكبر مدن إيران، حي لليهود قبل الإسلام، على مسيرة بضع أكيال من الشهرستان. واتسعت هذه المدينة منذ القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)؛ فصارت ضعفي الشهرستان القديمة.

كان الولاة يقيمون في المدن الكبيرة وفيها منشآت الحكومة، واقتدى العرب في هذا أيضاً بعادات الشعوب التي أدخلوها تحت حكمهم. وقد بدأ تأثير إيران يظهر منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب (١٣- ٢٣هـ = ٦٣٤- ٦٤٤م)، فأنشئت دواوين للكتابة والحساب. ولعل كلمة "ديوان" التي تدل على معنى chancellerie، أُخذت من اللغة الفارسية. وأما البلاد التي كانت في حكم بوزنطة، فأخذت المصطلحات

فيها من اليونانية واللاتينية ككلمة القَسْطار questor التي أخذت في مصر من اللغة اللاتينية.

وظلت الأعمال الكتابية في عهد العرب، بأيدي العمال المحليين وفي اللغات المحلية (في الفارسية واليونانية) ولم يُبدأ استعمال اللغة العربية إلا في نهاية القرن الأول الهجري (نهاية القرن السابع الميلادي). ومن هذا الحين أيضاً بُدئ في سك العملة باللغة العربية. وطبعت في البلاد المأخوذة من بوزنطة، صورة الصليب كما كانت في المسكوكات البوزنطية قبلاً. وأما في ولايات إيران فطبعت صورة بيت النار. ورأى العرب نظام السكة الذهبية في بوزنطة والسكة الفضية في إيران. وظل هذا الفرق حتى بعد أن صارت هذه البلاد إلى العرب؛ فسميت السكة الذهبية عند المسلمين ديناراً (من ديناريوس اللاتينية) والسكة الفضية درهماً (من دراخموس اليونانية)، ودخل هذا الاسم في إيران بعد الإسكندر. وأما كلمة الفَلْس، اسم العملة النحاسية، فأخذت من كلمة أبُلُس اليونانية. وكان الدينار يُسكّ في عهد الدولة الأموية في دمشق وفي عهد الدولة العباسية في بغداد. وأما الدرهم فكان يُسك في المدن الكبيرة التابعة للولايات أيضاً. ولم تكن للفلس إلا قيمة محلية. وكان الدينار منذ القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) يزن في إيران الشرقية وآسيا الوسطى مثقالاً واحداً. والدرهم أصغر منه وقيمته تعادل ٢٠/١ من الدينار. أي أن العرب اجتهدوا كذلك في المحافظة على النسبة المعينة بين العملة الذهبية والعملة الفضية، منذ عهد ملوك إيران القدماء حتى دول أوروبا الغربية الحالية. ولكن العرب –كما يقع دائماً–

لم يوفّقوا للمحافظة على ما بين هذين المعدنين من نسبة في جميع الأزمان؛ فكانت قيمة الفضة ترتفع وتنخفض بالقياس إلى قيمة الذهب.

وظل تأثير الشعب في الأعمال الإدارية منحصراً في دائرة الأعمال المحلية، وإنا نرى مصطلحات مأخوذة من لغات عديدة تستعمل متآلفة معاً في أعمال الخلافة الخاصة بالدولة والإدارة. فالمصطلحات المأخوذة من بوزنطة مثلاً تستعمل في البلاد التي أخذت من إيران، كما تستعمل الكلمات المأخوذة من إيران في الولايات التي كانت لبوزنطة سابقاً. وكانت الرسل التي تنقل رسائل الحكومة في ذلك الوقت، كما كانت سابقاً، تسمى "بريد"، وهي كلمة مأخوذة من كلمة وريدوس weredus اللاتينية. بينما سماها اليونان انكروس نقلاً عن اللغة الفارسية. وقد شاع المصطلح العسكري "الجد" كثيرا، وهي كلمة فارسية معروفة قبل محمد (صلى الله عليه وسلم)، في سوريا في المعسكرات التي بقيت على حالها ولم تتحول مدناً. على أن البلاد التي كانت تابعة لبوزنطة سابقاً قُسمت في عهد الخلفاء إلى عدة أجناد. وكان أمراء المعسكرات التابعة للولايات يحملون لقب أمير مصر مع لقب أمير الجند. ومصر كلمة يمنية معناها المدينة، استعملت في معنى غير معنى "رستاق" التي تدل على قرية. وقد استعملت مع الكلمات العربية الحقيقية كلمة ال"حرس" لمحافظي الملوك أو الأمراء، وكلمة "شُرطة" للبوليس العسكري. وكان على رأس الشرطة قائد خاص بها، وهو في مقام الجناح الأيمن للأمير. ولعل جميع هذه الرتب مأخوذة من الإيرانيين. لم يكن الخلفاء مستبدين كالإيرانيين في بادئ الأمر، إلا أن أصول الإدارة الإيرانية اتُّخذت نموذجاً

لهم. وكان الخليفة في عهد الدولة الأموية أكثر شبهاً بشيخ العرب أو سيدهم منه بشاه إيران. وقد طلب الخليفة الوليد الأول في بعض أيامه أن ينادى باسمه فقط اتباعاً لعمل الرسول (صلى الله عليه وسلم).

قبلت الخلافة التقاليد الإيرانية في أمور الدولة، ولكنها أخذت في ساحة الحضارة أموراً كثيرة من بوزنطة؛ فإن صناعة النسيج المصرية التي جلبت إلى سواحل سوريا في عهد الخلافة، ظهر تأثيرها في إيران وتركستان أيضاً. وكانت الأقمشة التي تحمل اسم مصر تُنسج في إيران وتركستان كما تنسج في مصر. وأما في الأزمان الأخيرة فقد تخلى المسلمون عن الأولية في الحضارة المادية للصين وعن الثانوية لليونان. نقل عرفي وهو مؤلف إيراني في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)، وكلافيجو Clovijo السائح الإسباني في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) أقوالا يرددها المسلمون وهي: يزعم الصينيون أنه لا يعين في أمور الفن إلا لهم وأن الأقوام الأخرى عمى. وأما اليونان (الإفرنج عند كلافيجو) فيُستثنون من هذا الحكم، فهم عور.

أُعطي اليونان المرتبة الأولى في الحضارة، وابتدأت الترجمة من اليونانية إلى العربية بتأثير المسيحيين في القرن الأول الهجري. فإن خالد بن الخليفة يزيد الأول كان أول المحبين لعلوم اليونان، توفي سنة ٨٥هـ (٧٠٤م) ولما يبلغ الأربعين من عمره (وكان صغيراً حين توفي أبوه سنة ٦٤هـ = سنة ٦٨٣م). ويُعزى إليه ترجمة كتب في علم الهيئة والطب والكيمياء. حتى يُروى أنه وجد الحجر الفلسفي الذي يصنع به الذهب

الاصطناعي. وكان خالد أمير مدينة حمص في سوريا الشمالية، وكان بهذه المدينة معبد الشمس المشهور في الزمن القديم، ثم كانت بها كنيسة كبيرة احتل المسلمون قسماً منها فيما بعد. وفي رواية أخرى أن المسلمين كانوا يصلون في قسم من هذا المبنى مع أن قسمه الآخر ظل كنيسة منذ القرن العاشر الميلادي. ويحتمل كثيراً أن يكون المجوس أيضاً يتعبدون فيه في تلك الأزمان. إن مدينة حمص أحسنت استقبال فاتحي المسلمين أكثر من جميع مدن سوريا الأخرى. ويمكن تعليل ذلك بنظر سكان هذه المدينة إلى الإصلاحات الدينية التي قام بها هرقل نظرة عداء.

وبالرغم من أن المسلمين عرفوا الحضارة اليونانية في الإسكندرية ومدن سوريا، فقد ظهرت الآثار المدنية المهمة حتى في ساحة العلم نفسه في الكوفة والبصرة على شواطئ دجلة والفرات. أنشئت كلتا المدينتين في عهد الخليفة عمر على النموذج المعتاد؛ ففيها أحياء خاصة بالقبائل وبوسطيهما ميدان به جامع وقصر الوالي. ونُقلت البصرة فيما بعد إلى مكان آخر، فهجرت المدينة القديمة. وأما الكوفة فقد ضاعت مكانتها منذ زمن بعيد. إلا أن الجماع لا يزال قائماً إلى الآن ولو أنه لم يُدرس إلى الآن درساً علمياً كما أن مدينة واسط المنشأة على إحدى روافد دجلة في أيام الأمويين لم تدرس إلى الآن. وقد فقدت واسط خطورتها السياسية بعد الدولة الأموية إلا أنها ظلت قروناً عديدة مركزاً للتجارة والصناعة.

صارت الكوفة والبصرة مركزين نشيطين للحياة العلمية، ولم يكن في القرن الأول الهجري (السابع الميلادي) مدينة تستطيع منافستهما، ففيهما

وضعت علوم العقائد والفقه من قبل الأعجام (غير العرب) الذين أسلموا وتلاميذهم. ثم نشأت في كلتا المدينتين مدرسة (مذهب) للنحويين واللغويين؛ فكانت مجادلات ومنافسات بين البريين والكوفيين. ولكن لم يكن أكثر هؤلاء الواضعين للعلوم العربية أيضاً من العرب بل كانوا أعجاماً[١]. وقد رتب الخليل بن أحمد، وهو رئيس البصريين، قاموساً للغة العربية. وتعتمد الكتب العلمية والاصطلاحية التي ألفت في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) في خراسان، على كتاب الخليل (ألف الخليل كتابه المذكور في خراسان). ويتضح من هذا القاموس تأثير اليونان في علوم العرب، كما ظهر في تصنيف العلوم؛ فتُقسم الفلسفة إلى قسمين كبيرين: وهما الفلسفة النظرية والفلسفة العملية. ويُدخل بعض العلماء علم المنطق في قسم العلوم العملية، ويجعله علماء آخرون قسماً خاصاً. وهناك قسم ثالث من العلماء يسمونه آلة للفلسفة. وللفلسفة النظرية أقسام ثلاثة أصلية: وهي الإلهيات والطبيعيات وبينهما الرياضيات. وتنقسم العلوم الرياضية إلى الأقسام الآتية: الحساب والهندسة والهيئة والموسيقى. تلك هي المعارف التي كونت الحكمة الرباعية لأوروبا في القرون الوسطى (quadrivium)[٢]. ثم اعتبر الرياضة والمنطق معاً مقدمة لدراسة وفهم الإلهيات والطبيعيات. ولم تكن للإلهيات أقسام.

([١]) تاريخ العلوم الإسلامية والعربية لا يصدق هذا القول على إطلاقه، فأئمة النحويين في ذلك العصر كانوا من العرب، ولم يكن سيبويه إلا تلميذ الخليل. وكذلك علوم العقائد والفقه، كان للعرب فيها نصيب لا يقل عن نصيب غير العرب في الجملة. وحسبك أن تذكر أن كل الأئمة المجتهدين، ما عدا أبا حنيفة، من العرب. انظر المقدمة.

([٢]) كلمة لاتينية معناها الطرق الأربعة، وهو القسم الأول المشتمل على علوم الحساب والهندسة والموسيقى والفلك، من القسمين اللذين تنقسم إليهما العلوم البشرية في القرون الوسطى. والقسم الثاني يسمى الطرق الثلاثة trivium، وهو يشمل علوم النحو والبلاغة والمنطق. وكانت هذه العلوم السبعة تسمى العلوم الجديرة بالرجل الحر Arts libéraux

وانقسمت الطبيعيات أقساماً عديدة، كالطب والكيمياء. والفلسفة العملية تنقسم إلى أقسام كالأخلاق والاقتصاد والسياسة. وللنحو والريطوريقا والدياليقيطيقا أيضاً مكان بين العلوم، ولكنها لم تكن تتحد في قسم مستقل. وهناك باب للكتابة والشعر والتاريخ بعد النحو والعقائد والفقه الإسلامي. ويُدرس الريطوريقا والدياليقطيقا في باب المنطق كأنهما من أقسامه.

الفصل الثالث

بغداد وازدهار الحضارة العربية المتأخر

وُضع في البصرة والكوفة أساس علم الكلام الإسلامي والنحو وفقه اللغة العربية، وكان للقصر العباسي تأثير كبير في رقي هذه العلوم فيما بعد، وفي رواج العلوم والمعارف الأخرى عامة.

وقد أنشأ الخليفة المنصور في سنة ١٤٥هـ (حوالي السنة الستين من القرن الثامن الميلادي) عاصمة جديدة له على شاطئ دجلة الغربي. وكان هناك من قبل دير للنصارى وقرية تدعى بغداد؛ فسميت المدينة الجديدة بهذا الاسم التاريخي. ولم يَرُج اسم مدينة السلام الذي أسماها به مؤسسها الجديد. ولكن الخلفاء استعملوا في مسكوكاتهم هذا الاسم (ولا يُذكر اسم بغداد في المسكوكات إلا بعد استيلاء المغول عليها ٦٥٦هـ = ١٢٥٨م). ولقد خُطت مدينة المنصور التي دَرَست منذ زمن بعيد، على شكل خاص بها. ومن أظهر ما يميز بغداد عن المدن الشهيرة الأخرى كونها مخططة تخطيطاً دائرياً. وكانت لأسوارها أبواب أربعة في جهاتها الأربع. وقد بُنيت بجانب كل باب أبنية كبيرة لإقامة الفرق العسكرية. والأبواب الأربعة تُفضي جميعاً إلى الساحة الواقعة في المركز،

وكان بهذا الميدان القصر الكبير والدواوين. وكان عدد الدواوين في ذلك العهد سبعة وهي:

(١) ديوان الخاتم وهو ديوان يعمل على تصديق الشئون المعروضة على الحاكم.

(٢) ديوان الشئون السياسية.

(٣) ديوان جيش الخاصة.

(٤) ديوان الجند الذي يدبّر قوة الدولة العسكرية.

(٥) ديوان الخزانة، وهو يقوم بشئون واردات الدولة.

(٦) الديوان الذي ينظر في شئون نفقات الدولة يعني ديوان المالية.

(٧) ديوان ينظر في الأرزاق والمهمات الخاصة بالدولة.

وكان في الميدان الفسيح الذي به الدواوين المذكورة مبان أخرى لإدارة الدولة المركزية كخزينة الدولة والمهمات العسكرية ومخازن الأسلحة وغيرها، وفيه مطعم عام لحرس الحاكم وضباطهم. وكان هذا الميدان المحتوي على جميع المصالح المذكورة محاطاً بسور عظيم، ولا يُدخل فيه إلا من أبواب خاصة. وليس له صلة بالأحياء الأخرى، وأما الأسواق فكانت خارج المدينة، وكانت عاصمة المنصور هذه أكبر من

مدينة دمشق على كل حال، ومع ذلك لا يمكن مقارنتها بمراكز الدول في هذه الأيام. وكان نصف قطر الدائرة التي تشغلها هذه المدينة أقل من كِيلين[1].

إن قصة إنشاء مدينة بغداد تدل على ما حدث بعد النبي (ص) والخلفاء الأربعة من التغير الخطير في حياة الملوك في العالم الإسلامي، واستمر هذا التغير في عهد الخلفاء من بعد؛ فإن زيادة سيطرة العمال وزيادة سلطان الوزير وهو رئيس الدواوين، كل هذا حدث في النصف الأول من القرن الثالث الهجري (في النصف الأول من القرن التاسع الميلادي).

وفي هذا العهد نفسه أحاط الخلفاء أنفسهم بفرق من الجنود المكونة من الأرستقراطية الإيرانية والأتراك المملوكين. وكان هناك عامل كبير غير الوزير وقائد الجيش، يدعى قاضي القضاة، يتولى رياسة الأمور القضائية. وكان العمال في زمن المنصور، حتى أصحاب المناصب العالية، يتقاضون رواتب أقل من رواتب العمال في عهد الدولة الأموية (٣٠٠ درهما شهرياً يعني سبع جنيهات ونصف الجنيه الإنجليزي). وارتفعت الرواتب في زمن الخليفة المأمون؛ فكان قاضي مصر في أيام المأمون يتقاضى راتباً قدره أربعة آلاف درهم شهرياً (٨٠ جنيها إنجليزيا)، وفي رواية أخرى أعلى من ذلك، أي سبع دنانير يوميا (ثلاث جنيهات ونصف الجنيه الإنجليزي) وكان راتب الوزير في بغداد في القرن

([1]) الكيل كالميل تعريب كيلو متر.

الرابع الهجري (العاشر الميلادي) يبلغ سبعة آلاف دينار شهريا (٣٥٠٠ جنيها إنجليزي)، وقاضي القضاة خمسمائة دينارا (٢٥٠ جنيها إنجليزيا). وفي الجملة فإن رواتب العمال في القرن الرابع وهو عهد تناقص بلاد الخلافة، أعلى مما كانت في أيام هارون الرشيد بكثير.

وكل هذا يدل على أن الحُكام في الشرق، لم يؤثروا في حياة بلادهم تأثيراً كبيراً، كما يُظن؛ فإن الذين لا يعرفون الشرق معرفة كافية يتذكرون هارون الرشيد وقصره إذا سمعوا كلمة بغداد. في حين أن بغداد هارون الرشيد كانت مدينة صغيرة بالقياس إلى بغداد خلفاء القرنين الثالث والرابع الهجريين (التاسع والعاشر الميلاديين) الذين فقدوا سلطانهم.

***

ومن الخطأ أيضاً الظن بأن دخول علم اليونان وفلسفتهم إلى العرب كان بتأثير الأوامر التي صدرت في أيام المنصور والمأمون بالبحث والحصول على مخطوطات وترجمتها إلى العربية، فلا شك في وجود علاقة بين العلم في العهد الإسلامي والعلم اليوناني الذي كان منتشراً في إيران قبل العهد الإسلامي، ولو أن هذه المسألة لم تُدرس بعد درساً وافياً.

إننا نجد حتى في قصور المنصور والمأمون علماء خرجوا من إيران (وكان هناك بعض اليهود أيضاً). ولم تُتَرجم الكتب العلمية إلى العربية من اللغة السريانية فقط، بل تُرجمت إليها من البهلوية أيضاً، أي من فارسية

الدولة الساسانية، وكانت جداول الهيئة تسمى ال"زيج"، وهو اصطلاح فارسي. ولا يعرف العرب شعراء اليونان وعلماءهم ومؤرخيهم لأنهم عرفوا علم اليونان وفلسفتهم على أيدي الوسطاء بمشقة؛ فلذا لم يكن لهم تصور واضح فيما يخص تاريخ علم اليونان وفلسفتهم؛ فتاريخ اليونان يبدأ عندهم بفليوس ملك مقدونيا. ومعلوماتهم فيما يختص بحياة فلاسفة اليونان وعلمائهم سطحية؛ فيزعم المتخصصون منهم أن سقراط قتل بأمر ملك اليونان. ويعدون بعض علماء اليونان إيرانيين لأن مؤلفاتهم المعروفة لديهم مكتوبة بالبهلوية.

وقد أثر في إيران، سواء في عهد الساسانيين أو في العهد الإسلامي، علم الهند زيادة على تأثير علم اليونان. وحدث هذا التأثير بواسطة اليونان، كما يُظن حدوث بعضه مباشرة أيضاً. وبدأ تأثير اليونان في علم الفلك خاصة. وأما تأثير الهند، ففي العلوم التي نشأت فيها كالحساب والجبر. إن الأرقام التي اشتهرت في أوروبا باسم الأرقام العربية والتي انتقلت من الهند إلى الغرب بطريقين: طريق إيران وطريق مصر، اختُرِعت في الهند؛ فإذا طرحنا جانباً خدمات ديوفانت Diophante الرياضي الذي عاش في الإسكندرية في القرن الرابع الميلادي، فإن علم الجبر الذي لم يكن معلوماً لليونان علماً تاماً، كان قد ازدهر في الهند إلى حد كبير. وقد تعرف الأوروبيون بهذا العلم بوساطة العرب واتخذوا كلمة الجبر العربية اسماً له. وقد أثر في اليونان من العلوم الهندية علم الطب تأثيراً كبيراً. ويُستدل على ذلك بما استعمله ديوسقوروس الطبيب الذي عاش في الإسكندرية قبل الميلاد بقرن من

المصطلحات الهندية. ومن جهة أخرى كان الهنود أنفسهم يعتمدون على أطباء بكتريا (بلخ)؛ فإن الجراحة التي فقدت مكانتها في الهند سريعاً، يُظن أنها بقيت تحت التأثير اليوناني خاصة.

إن حوض دجلة والفرات كان أنشط أماكن الحركة العلمية في القرنين الثالث والرابع الهجريين (التاسع والعاشر)؛ فالبصرة وحران وبغداد كانت أهم مراكز العلم والحضارة. ويمكن أن يُذكر هنا الجاحظ المشهور بغزارة علمه (المتوفى سنة ٢٥٦هـ = ٨٦٩م) والكندي (توفي سنة ٢٦٠هـ = ٨٧٣م) أول مفكر حر في العرب، من المشاهير الذين ارتبطت أسماؤهم بالبصرة. وتألفت في البصرة في القرن الرابع، جماعة من المفكرين الأحرار باسم "إخوان الصفا". وقد نالت الواحدة والخمسون رسالة التي أبدعها هذا الاتحاد الشبيه بالجمعية الماسونية، إقبالاً عظيماً بين الناس، وحملها أحد رياضيي إسبانيا إلى بلاده في أواخر القرن الرابع الهجري (نهاية القرن العاشر الميلادي). وفي نهاية القرن الثامن (نهاية القرن الرابع عشر) تُرجمت إلى الفارسية لأحد وزراء تيمور. وكانت بغداد تجذب العلماء من كل أرجاء العالم الإسلامي المختلفة وخاصة من إيران وآسيا الوسطى؛ فكان أبو معشر – منافس الكندي في بغداد – من أصل بلخي. كما أن أبا زيد أحد تلاميذه المشهورين، من بلخ أيضاً. وقد عاش في بغداد من قبل عالم يدعى أبو موسى الخوارزمي، وهو من خوارزم أي من جمهورية خيوة الحالية. وقد خلف كتباً قيمة في الحساب والجبر، وظل ثقة في أوروبا حتى عصر النهضة (واللوغاريتم كلمة معرفة عن هذا الاسم). وظهر من فرغانة الواقعة على الحدود

الشرقية للبلاد الإسلامية في تلك الأزمان، الفلكي المشهور أحمد الفرغاني (توفي سنة ٢٤٧هـ – ٨٦١م). ومن التركستان الفيلسوف أبو نصر الفارابي، وهو تركي تلقى العلوم في بغداد وتوفي بدمشق سنة ٣٣٩هـ (٩٥٠م). وللبتاني الرياضي الفلكي مكانة خاصة بين العلماء الذين نشأوا في حران. اشتغل في مدينة الرقة الواقعة على شاطئ الفرات، وتوفي سنة ٣١٧هـ (٩٢٩م)؛ والمعلومات الأولى عن المثلثات مرتبطة باسمه في أوروبا. وكانت المثلثات في بلاد اليونان والهند ملحقة بعلم الفلك، ولم تصر علماً قائماً بذاته حتى في الشرق إلا في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي).

لم يكن عدم اطلاع العرب على فقه اللغة اليونانية وتاريخ اليونان خالياً من التأثير في أعمالهم الفلسفية والعلمية؛ فإن علماء العرب لم يقدروا على تمييز الكتب المختلفة المعزوة إلى الفلاسفة المتقدمين، من أصولها. وكانوا يخلطون أحياناً بين الأسماء المشتركة أو المتشابهة من أسماء الفلاسفة كأفلاطون وأفلوطين مع وجود اختلاف في زمن حياتيهما. ولم يكن يفهم الفرق بين آراء أفلاطون (وازدهارها باسم الأفلاطونية الحديثة) وآراء أرسطو فهماً واضحاً؛ فينسب مثلاً كتاب الإلهيات إلى أرسطو وهو تأليف أفلوطين الذي عاش في القرن الثالث الميلادي. وقد انتقلت أمثال هذه الآراء الخاطئة في أرسطو من العرب (كان المترجمون يهوداً) إلى أوربا في القرون الوسطى؛ فكان إلهيات (théologie) العرب وتصوفهم (mistique) تشبه شبهاً قليلاً جداً فلسفة أرسطو الحقيقية التي وجدها الأوروبيون بعد أن تعرفوا بالمصادر اليونانية رأساً. وقد حاول

فلاسفة العرب تأليف الفلسفة اليونانية مع الآراء الدينية الإسلامية كما فعل الكاثوليك من قبل؛ فلذا يجعل مؤرخو الفلسفة أحياناً مصطلح "اسكولاستيك" شاملاً الفلسفة العربية أيضاً.

لقد ساعدت العلاقات الوثيقة بين الممالك الإسلامية المختلفة مساعدة كبيرة على نقل نتائج الحضارة من يد إلى يد؛ فإن تاريخ الطبري الذي أُلف في بغداد في القرن الرابع (العاشر الميلادي)، والذي هو أوسع مرجع في العصور الإسلامية الأولى، انتشر في القرن نفسه في العالم الإسلامي من مشرقه إلى مغربه. وأُلف في قرطبة للحكم الثاني (٣٥٠- ٣٦٥هـ = ٩٦١- ٩٧٦) ملك الأندلس، كتاب تاريخي مقتبس من هذا الكتاب – مع زيادات خاصة بتاريخ الأندلس – كما كتب في بخاراً ملخص للطبري باللغة الفارسية للأمير منصور الأول الساماني. وكذلك الأدب العربي الجغرافي الذي يجدر بحق أن يسمى أثمن مخلفات الحضارة الإسلامية عن القرنين الرابع والخامس (العاشر والحادي عشر الميلاديين)، يدلنا على وثاقة العلاقات المدنية. وقد ظهرت خرائط بلاد الخلافة والمسائل الحسابية الأولى الخاصة بعلم الهيئة، في بغداد وفي قصر المأمون. إن الكتاب الذي ألفه في القرن الرابع أبو زيد البلخي تلميذ الكندي، طبقه الإصطخري أولاً ثم طبقه ابن حوقل أحد تجار إفريقية الشمالية. إننا نجد في الكتب الجغرافية العربية المؤلفة في القرن الرابع، معلومات مفصلة عن البلاد الإسلامية من إسبانيا إلى التركستان والسند. توصف المدن الكبرى التي في تلك البلاد وتحصي الصناعات، كما تذكر معلومات صحيحة واضحة عن محصولات

الأرض[1]. كانت الدنيا تنقسم، اتباعاً لجغرافيي اليونان، إلى سبعة أقاليم من الشمال إلى الجنوب، وتدخل مراكز الحضارة كبغداد وأصفهان في الإقليم الرابع الواقع في الوسط. ومن الطبيعي أن تكون هذه الحضارة لدى أرباب الحضارة الإسلامية آخر مرحلة بلغها الذكاء البشري (وهكذا كان نظر اليونان القدماء والأوروبيين نحو حضارتهم). ويقع الإقليم الرابع وهو المتوسط، عند علماء المسلمين، على مسافة واحدة من الجهة الحارة والجهة الباردة. ويجمع أصلح الأحوال لحياة الإنسان وأعماله؛ فيجب أن تكون هذه البلاد، بناء على قانون الطبيعة، أكثر أقسام الأرض حضارة.

إن ازدهار الحضارة لم يكن خالياً من التأثير في درجة رقي الجماعة في العلم؛ فصار العرب يفهمون الفرق بين العالم المتخصص في علم من العلوم والأديب المطلع على النتائج الأخيرة للعلوم. ونبغ مؤلفون نشروا نتائج أبحاثهم العلمية رويداً رويداً، كما نبغ في الأدب شعراء مفكرون إلى جانب أساتذة الأدب المتقدمين في ساحة الأسلوب القديم، إلا أن الجمال الخارجي الذي يمتاز به الأدب العربي ظل دائماً متفوقاً على الأدب الفارسي الذي يفضل الفكر، وفي الجملة لم يؤثر الأدب العربي في الأقوام الأخرى ما أثر الأدب الفارسي فيها فيما بعد.

---

(1) ومنها القطن، حمله العرب إلى صقلية وأسبانيا من بلاد أوروبا. ولا يزال القطن يذكر في اللغات الأوروبية باسمه العربي. المؤلف.

بدأ تقدم المسلمين في الحضارة في نُظم الدولة كما بدأ في إدارة الحروب وأوقات السلم، وقد رُوي أنه كان في الجيش البوزنطي معلم عربي في أواخر القرن الثاني (بداية القرن التاسع الميلادي) والتحق بالبلغار الذين كانوا لا يزالون وثنيين (شامانيين[1])، لعدم وفاء البوزنطيين له بما وعدوه من المال، وسبب انتصارهم على البوزنطيين للمرة الأولى (سنة ٨١١م). وفي نفس هذا القرن يُقر حُجاج نصارى أوروبا الغربية الذاهبين إلى بيت المقدس بأن حياتهم وأموالهم في البلاد الإسلامية كانت في مأمن أكثر منها في بلادهم. ومهما كان من تقدم العلم فإن هذا التقدم لم يؤثر إلا تأثيراً ضئيلاً في لين الطباع وتغيير الحالات الاجتماعية وإدارة الدولة. وكان الفلاسفة عرفوا نظريات أفلاطون وأرسطو السياسية. وصنف منهم الفارابي كتاباً في السياسة، ولكن هذا الكتاب يصور المدينة الفاضلة بعيداً عن الحياة الحقيقية. ويكفي ذكر هذه العبارة للاستدلال على رأي الفارابي في إدارة الدولة وهي: "إن وجد مثل هذا في المدينة الفاضلة، ثم حصلت فيه بعد أن يكبر، تلك الشرائط الست المذكورة قبل أو الخمس منها دون الأنداد من جهة القوة المتخيلة، كان هو الرئيس... فإذا لم يوجد إنسان واحد اجتمعت فيه هذه الشرائط ولكن وجد اثنان أحدهما حكيم، والثاني فيه الشرائط الباقية، كانا هما رئيسين في هذه المدينة. فإذا تفرقت هذه في جماعة، وكانت الحكمة

([1]) الشامانية دين وثني منتشر في سيبريا وبلاد المغول الغربية، بين شعوب جبال التاي خاصة، كأوستياك والتونغوس والصامويد، ويسمى رجاله "الشامان". وأساس هذا الدين عبادة الطبيعة والأرواح المديرة لها، ويقيم الشامان الطقوس الدينية بالرقص والغناء والقيام بحركات غريبة، وقد لبسوا أثواباً مضحكة ووضعوا على رؤوسهم القرون.

في واحد، والثاني في واحد، والثالث في واحد، والرابع في واحد، والخامس في واحد، والسادس في واحد، وكانوا متلائمين، كانوا هم الرؤساء الأفاضل"[1].

وكانت العقوبات الشديدة تُوقع على الناس في ميادين المدن المتحضرة كما كانت قبلاً. والأفكار العامة رضيت بهذا كما كانت الحال في أوروبا الغربية حتى أوائل القرن التاسع عشر. ولم يكن سكان المدن المشاغبون ينالون ثقة الملوك كثيراً. وقد أقام هارون الرشيد في بغداد قليلاً جداً بالرغم مما في روايات قصص ألف ليلة وليلة. وقد أنشأ ابنه المعتصم (٢١٨- ٢٢٨هـ = ٨٣٣- ٨٤٢م) والخلفاء الذين جاءوا بعده عاصمة جديدة للحكومة على شاطئ دجلة باسم سامرا على مسيرة ثلاثة أيام من بغداد. وكان في هذه المدينة دير للنصارى أُخذ منهم لبناء المدينة مكانه. ومما يدل على بلوغ سامرا مكانة مدينة عظيمة في مدة وجيزة، امتداد طولها على ساحل دجلة نحو خمسة عشر كيلا وإن لم يمتد عرضها كثيراً. وأنشئت مبان كثيرة في عهد المعتصم وخلفه الواثق (٢٢٨- ٢٣٢هـ = ٨٤٢- ٨٤٧م). ولا تزال أطلال قصر المعتصم وجامع المتوكل (٢٣٢- ٢٤٧هـ ٨٤٧- ٨٦١م) الكبير قائمة إلى الآن. وبني في سامرا ضريح للمرة الأولى، وكان الخلفاء إلى ذلك الوقت يُدفنون حيث يموتون بلا تكلف اقتداء بالرسول (صلى الله عليه وسلم). ومنذ هذا الوقت ابتدأ الاهتمام الكثير بالمكان الذي يموت فيه الخليفة

---

(١) آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابي، نشره فرج الله زكي الكردي.

أو يدفن؛ فنقل المعتمد (٢٥٦- ٢٧٩هـ = ٨٧٠- ٨٩٢م) وهو الذي نقل عاصمة ملكه إلى بغداد في أخريات أيامه، إلى سامرا ودفن بها. ولم تستطع سامرا استعادة مكانتها السابقة بعد القرن الثالث، ولكن أطلال المدينة التي بناها المعتصم لا تزال موجودة إلى اليوم، بينما درست آثار مدينة المنصور. وأخذ الخلفاء في القرن الرابع يقيمون في بغداد مرة أخرى. وكانت بغداد في هذا العصر مدينة كبيرة تشغل على ساحل الدجلة الأيسر مسافة قدرها ٤٣٧٥ فداناً (بالروسية ديستينة، تساوي ٢٤٠٠ قصبة مربعة)، وعلى ساحلها الأيمن ١/٣ ٢٩١٦ فداناً. وكانت قصور الخلفاء وثكنات الجيش ثلث المسافة الواقعة على الساحل الشرقي. وكان القصر حرماً ممنوع الدخول بالرغم من وجود الجامع الكبير فيه وهو مكان مباح للجميع. وكان في بغداد أحد عشر جامعاً كبيراً منها تسعة في الجهة الغربية وثلاثة في الجهة الشرقية. وقد كانت القصور التي بسامرا وبغداد نموذجاً لقصور دول كثيرة في البلاد الممتدة من بخارى إلى قرطبة حتى بعد أن تقلصت حدود الخلافة.

***

وكانت ضرائب الأطيان أساس دخل الخلافة مع ازدهار حياة المدن، لأن الشريعة الإسلامية والأفكار العامة تعارض أخذ الضرائب عن التجارة والصناعة[1]، ورغم ذلك كانت هذه الضرائب تؤخذ من كل

([1]) تفرض الشريعة زكاة على رؤوس المال، وعروض التجارة وتعشر سلع التجار الذين يدخلون البلاد الإسلامية.

الجهات. وكلمة تاريف tarif المستعملة في اللغات الأوروبية، ومنها اللغة الروسية، محرفة من كلمة "تعريف" العربية، وهي تدل على تأثير العالم الإسلامي في أوروبا من هذه الناحية. ولم تهتم الدولة بتطبيق نظام واحد في جميع البلاد مطابق لما تطلبه الشريعة مطابقة تامة؛ فظلت مصر في العهد الإسلامي كما كانت من قبل. وكل الفرق بينها وبين غيرها أن الأرض كانت فيها ملكا للدولة. وأما العبودية المرتبطة بالأرض (القِنّ) فلعلها لم توجد في مملكة من الممالك الإسلامية؛ فإنه لم يكن أحد يمنع المزارعين من ترك أراضيهم، كما أن أصحاب الأطيان كانوا يستطيعون أن يأخذوا أطيانهم من مزارع ليأجروها مزارعاً آخر يدفع أجراً أكثر. ولكن نظام "إقطاع الأرض مكافأة أو هبة" قد تزايد في البلاد الإسلامية وانتشر كثيراً. إلا أنها لم تكن تقطع هي والذين يعيشون عليها كما كان في أوروبا في القرون الوسطى، وفي روسيا في القرن التاسع عشر، بل تقطع وحدها.

وأما في إيران وفي تركستان فقد أبطل الإسلام، كما سنرى في الفصل الآتي، نظام الطبقات القديم وامتلاك الأراضي الواسعة. وحدث مثل هذا في بلاد الأرمن كذلك؛ ولكن النشاط الأدبي لم يغير الحالة الاجتماعية كثيراً في الجهات التي استعربت لغةً، في الساحات الممتدة مما بين النهرين حتى إسبانيا. اتسعت المدن ولكن لم يزد عددها كثيراً. وبقيت علاقات المزارعين بالدولة كما كانت سابقاً، وكان ارتباطهم بأمراء الإقطاعات في عهد الإسلام كما كان قبله، إلا أن ملك الأراضي الخاصة لم يكن ذات خطر كبير كما كان في إيران قبل الإسلام. ويحتمل أن

يكون لهذه الحالة أثر في كون الأمة العربية وهبت للحضارة شيئاً قليلاً، مع أن البلاد العربية في العالم الإسلامي تعرضت لهجوم البرابرة وتخريبهم أقل من تعرض البلاد الإيرانية.

ومنذ العقد الرابع من القرن الرابع (حوالي السنة الأربعين من القرن العاشر الميلادي) تقلصت حدود حكم الخلفاء العباسيين[١]، وبدأ عهد اضطراب في إيران وبغداد اللتين كانتا تحت حكم الأسر الإيرانية أولاً ثم صارتا إلى الأسر التركية. ولعل تقهقر بغداد لم يكن قبل القرن الخامس (الحادي عشر الميلادي). ولكن المدينة صغرت في القرن السابع إلى حد كبير، حتى قيل في الكلام على أحد أحيائها القديمة بأنه "على مسيرة ميلين من المدينة". ومن جهة أخرى كان عهد ازدهار خلافة الأمويين في الأندلس والفاطميين في مصر في هذه الأزمان. وقد أخذت القاهرة تنافس بغداد منذ أواسط القرن الرابع[٢] (أواسط القرن العاشر الميلادي). والقاهرة اسم لمدينة جديدة بناها الفاطميون على مسافة بضع أكيال شمالي مدينة الفسطاط القديمة، وكانت أصغر منها. وكانت قاهرة الفاطميين، حتى بعد اتساعها في القرن الخامس تشغل نحو كيل مربع من الأرض. وظل بين المدينتين برية مدة طويلة. ومع هذا كانت الفسطاط والقاهرة تعدان مدينة واحدة. وقد انبهر الرحالون المعاصرون بما شاهدوا في قصور الفاطميين من عظمة، وفي عاصمتهم ودولتهم من رقي، وفي ملوكهم ووزرائهم من حماية للعلوم والفنون ومن غنى مكتباتهم.

---

(١) استولى بنو بويه على بغداد سنة ٣٣٤هـ.

(٢) القاهرة أسست في النصف الثاني من القرن الرابع.

ورغم كل هذا لم تستطع القاهرة أن تؤثر تأثيراً كبيراً في ازدهار الحضارة الإسلامية.

وكان الفاطميون الذين يدعون أنهم من سلالة فاطمة ابنة الرسول، يعملون على تقوية مذهب الشيعة ونشر نفوذهم المنافس لخلفاء بغداد حتى خارج حدود بلادهم. ويقود دعاتهم بنشر مذهب الإسماعيلية، وهو شعبة من مذهب الشيعة. وهذا المذهب يجعل إسماعيل المولود ببغداد أيام الخلفاء العباسيين الأولى، خلفاً شرعياً للرسول أي إماماً. ولكن الشيعية والإسماعيلية عاشتا في إيران لا في بلاد الفاطميين. ولم تنتج الدعاية الشيعية نتيجة كبيرة في مصر؛ فلذا لم تكد الدولة الفاطمية تفقد الحكم حتى أعيدت السنية بدون عناء. وأما في سوريا التي تعرضت للدعايات الشيعية من الإيرانيين أيضاً، وهي في سلطان الفاطميين، فقد حاول الشعب مقاومة إعادة السنية.

لم تنتج إفريقية الشمالية والأندلس شيئاً في العلوم الدينية (في العقائد والفقه)، ولم يقبل سكان البلاد المذكورة، الأصول المتبعة في الشرق الأدنى رويداً رويداً إلا بعد كراهتهم إياها زماناً طويلاً، وقد انتصر المذهب المالكي في إفريقية الشمالية وهو لم يقدر على الاستقرار في البلاد الأخرى كثيراً. ويجعل بعض العلماء هذا الأمر سبباً لتأخر هذا الركن من البلاد الإسلامية حضارةً. وأُنشئ في عهد الدولة الفاطمية مرصد في القاهرة ونُظمت جداول الهيئة. ولكن البلد الذي عمل لرقي علم الهيئة رقياً حقيقياً هو إيران. إن مصر وسوريا سلمتا من هجمات

المغول في القرن السابع (الثالث عشر الميلادي) بانتصار سلاطين مصر عليهم[1]، ولكن بالرغم من هذا ظلت إيران، وهي التي أخربها المغول كما سنراه فيما بعد، مركزاً للحياة الحضارية، بل ظلت مؤثرة في مصر. وفي هذا العهد استعملت المصطلحات الفارسية في أعمال إدارة الدولة بمصر بدل المصطلحات العربية. والزمن الذي بين القرن السابع والتاسع (الثالث عشر والخامس عشر الميلاديين) عهد إصلاح قوي في مصر. ولكن يرى المتخصصون أن تأثير فن العمارة الإيراني في مصر كان أكثر من تأثير فن العمارة المصري في إيران.

كانت مصر في العهد الإسلامي كما كانت في العهود السابقة، متفوقة على الممالك الشرقية الأخرى من جهة عدد المنتجات الأدبية؛ ففي مصر يجد المتخصصون، فيما يجدون من الكتب التاريخية والجغرافية المؤلفة في مصر، والوثائق القديمة عن العصور الإسلامية الأولى التي ظلت محفوظة بفضل جفاف جوها – يجدون مواد غنية لا يمكن أن يقارن بها ما يوجد في الممالك الإسلامية الأخرى. وأما من حيث التأثير في الممالك الأخرى فكانت القاهرة أقل تأثيراً من بغداد وإيران، كما أن مصر القديمة كانت أقل تأثيراً من بابل.

وكانت هذه الحال عينها في سوريا؛ فقد ساد تيار الجمع في العلم، والتقليد في الأدب. وازدهر الشعر فيها كثيراً في قصور آل حمدان في القرن الرابع. وأما بعد القرن الرابع فلم ينبغ إلا شاعر واحد مبتَكر وهو

([1]) موقعة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ وما تلاها من وقعات.

المفكر المتشائم أبو العلاء المعري (في القرن الحادي عشر الميلادي)[1].

إن بعض فروع العلوم والشعر العربي قد ختم عهده في إفريقية الشمالية وخاصة في الأندلس في النصف الثاني من القرون الوسطى، ابتداء من القرن السادس (الثاني عشر الميلادي). ولكن هؤلاء العلماء والأدباء أيضاً أنتجوا قليلاً جداً من الكتب المبتكرة، وأثروا في حياة إخوانهم الحضارية تأثيراً ضئيلاً. وأدام الفيلسوف ابن رشد في أسبانيا في القرن السادس مجهود الفلاسفة في عهد بغداد. والفرق بينه وبينهم أنه حاول تجديد تعاليم أرسطو في صورة واضحة، إلا أنه لم يقدر على تطهيرها من الأفلاطونية الحديثة تطهيراً تاماً. لقد وجدت تعاليم ابن رشد في أوروبا مريدين من الكاثوليكيين أكثر من المسلمين. وكان أكثر انتشار الحضارة الإسلامية في صقلية في عهد الحكم المسيحي فيها. لقد صنعت لجنة مؤلفة برئاسة الإدريسي العربي، كرة كبيرة مجسمة من فضة، وألفت كتاباً ضخماً في الجغرافية لروجر Roger ملك النورمان في صقلية عام ١١٥٤م، إلا أن المعلومات الخاصة بالممالك الآسيوية في هذا الكتاب مأخوذة من جغرافيي القرن الرابع.

كانت الدولة في كثير من الممالك العربية وخاصة في مصر، تكفل بأموالها العلماء، ومع ذلك تبدو قيمة خدمات العلماء أقل من قيمة خدمات العمال، وكان المال المبذول في العلم جزءاً صغيراً من نفقات

([1]) أبو العلاء ولد سنة ٣٦٣ وتوفي سنة ٤٤٩هـ.

الدولة العامة. كانت البلاغة وحدها تُقدر في العالم العربي بقيمة عالية، كما كانت في الإمبراطورية الرومانية القديمة. يقول ابن عتاب الذي عاش في نهاية القرن السادس (نهاية القرن الثاني عشر الميلادي): "يمكن الحصول على مدرس يجيد علوم الصرف والنحو والعروض والحساب والقرآن والأدب بستين درهما شهريا (جنيه إنجليزي)، بينما المدرس الذي يجيد القول فوق العلوم المذكورة لا يرضى بمائة درهم". وكانت ميزانية دار الحكمة التي أسسها الخليفة الحاكم بأمر الله (٣٨٦–٤١١هـ = ٩٩٦– ١٠٢١م) في مصر مائتين وسبعة وخمسين ديناراً (١٢٨ ونصف جنيه إنجليزي). ينفق منها تسعون ديناراً للورق الذي يُستعمل لنسخ الكتب، وستون ديناراً مرتبات الرئيس والعمال.

إن المقدمة المشهورة التي وضعها لكتابه في التاريخ العام، ابن خلدون الذي قام بأعمال الدولة في أفريقية الشمالية ومصر في أواخر القرن الثامن (أواخر الرابع عشر الميلادي)، لهي أول كتاب من نوعه في الأدب العربي وتجربة وحيدة لتخليص التاريخ من القصص، وجعل التحقيق مسيطراً عليه، وللبحث في قوانين التاريخ. ويسمي ابن خلدون التاريخ علماً جديداً بناء على إدراكه الشخصي. وتاريخه بعيد عن تأثير مؤرخي اليونان الاستنباطيين pragmatique؛ فمؤرخو العرب إذاً أخصب من مؤرخي اليونان علماً وتجربةً؛ فقد اتخذ ابن خلدون تطور الحالات الاقتصادية والانتقال من البداوة إلى حالة الاستقرار، ومن الحياة القروية إلى حياة المدن أساساً لنظريته، بدل تغير النظم السياسية المتخذة أساساً لدى مؤرخي اليونان. بتأثير مَن من العلماء وأي الكتب نشأت نظرية ابن

خلدون؟ هذا بحث لا يزال مجهولاً إلى اليوم. ولم يستطع ابن خلدون تطبيق نظريته على الأحداث التاريخية كما حدث لكثير من أصحاب النظريات في الأزمان القديمة والحديثة؛ فمقدمة ابن خلدون الجليلة كمقدمة ديودورس تشبه جداراً مزخرفاً لواجهة جميلة؛ فإذا أخرجنا المقدمة بقي كتابه مجموعة من الحوادث؛ فهو كجميع جامعي القرون الوسطى، ينقل روايات من سبقه من المؤرخين بدون تغيير في معظم الأوقات. ولم تؤثر نظرية ابن خلدون في غيره من مؤلفي العرب. ومما هو جدير بالملاحظة أن ابن خلدون وهو عربي يدعي بأن الحضارة الإسلامية "نتيجة مشتركة لجميع العالم الإسلامي"، ويجعل الحضارة الإسلامية، وهو جد محق في هذا، فوق ما سبقتها من الحضارات. ومع ذلك قد ذكر أنها تسير نحو الانحطاط وأنها ستضمحل تماماً. وينظر ابن خلدون إلى العرب أنهم "بدو هادمون للحضارة". غير أنه يتحدث عن تفوقهم في الشعر. ويرى أن العرب إذا اختاروا مكاناً لإنشاء مدينة راعوا حاجات الحياة البدوية؛ فمن هذا ينشأ اضمحلال المدن التي أنشأها العرب[1].

ومع أن ابن خلدون لم يكن كثير التفاءل بمستقبل وطنه الذي سلم في العهد الإسلامي من التعرض لهجمات البرابرة، سوى غارات البدو، فإنه ينظر إلى هجمات الترك والمغول على الممالك الإسلامية نظرة بسيطة وهي "خراب بعض المدن وانتقال الحضارة من مكان إلى مكان آخر". في حين أن الأوروبيين يجعلون استيلاء المغول والترك سبباً لسقوط الحضارة الإسلامية.

([1]) انظر المقدمة في نقد نظرية ابن خلدون. إن العرب في كلام ابن خلدون هم الأعراب غالباً.

وبعد مدة من هذا، في القرن التاسع (الخامس عشر الميلادي) سقطت مدينة غرناطة آخر معقل الحضارة العربية في إسبانيا. وقد ارتقى فن الشعر في هذه الإمارة الصغيرة إلى أعلى الدرجات، وأبدعت فيها آثار كقصر الحمراء؛ وهذا القصر يشغل مكانة خاصة ممتازة بين المخلدات الإسلامية التي وصلت إلينا كقصر مبني من مواد خفيفة. إن زخرفة motif هذا البناء الخاصة، بناء على أقوال المتخصصين، تتصل بتقاليد الفن الإسلامي العام، وبالأخص فن ما بين النهرين. أكثر منها بالتقاليد الإسبانية والإفريقية.

وقد ظهر سقوط غرناطة في نظر المعاصرين ضربة أصابت العالم الإسلامي كله، ولم يوجد من ينظر إليه من وجهة القومية العربية. إن الحادث الأخير الذي يمثل القومية العربية مع الخطورة الدينية في تاريخ الإسلام في القرون الوسطى، هو إعادة السلطة الزمنية لخلفاء بغداد. إذ أن أهل بغداد اعتبروا هذا الحادث "نجاة العرب" لا "إعادة سلطة الخلافة". ولكن الخلفاء لم يجتهدوا في جمع البلاد التي يتكلم أهلها العربية بتوسيع سلطانهم، وإنما أرادوا أن يعترف السلاطين لهم بحقوقهم السامية باسم الإسلام. وأما فكرة تأسيس دولة عربية كبيرة فقد فقدت قوتها من قبل أن يهدم المغول الوثنيون عاصمة الخلفاء في سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) بزمن طويل. وسقوط بغداد، كان كسقوط نينوى وبابل وروما، لم يحدث تأثيراً كبيراً.

الفصل الرابع

الحضارة الإيرانية
وتأثيرها في الممالك الإسلامية الأخرى

بناء على ما رأينا آنفاً كان عظماء رجال الدولة والحضارة الإسلامية فُرساً حتى في الأيام التي كانت اللغة العربية، اللغة الأدبية الوحيدة للمسلمين، ولكن إلى أي مدى يمكن أن تُعد أعمالهم امتدادا للحضارة الساسانية السابقة للإسلام؟ إن هذه المسألة لم تدرس دراسة كافية. وإذا استثنينا مملكة بابل التي هي إحدى عواصم الساسانيين، والتي يتكلم أكثر سكانها غير اللغة الفارسية، لم يكن لإقليم من أقاليم الساسانيين القديمة تأثير في رقي المسلمين ديناً واقتصاداً وعلماً كتأثير بلخ التي ظلت مرتبطة بالديانة البوذية حتى قدوم العرب. فمن بلخ نشأ البرامكة وزراء خلفاء بغداد. وأسماء العلماء المشهورين في تاريخ العلوم العربية ذات علاقة ببلخ. إن خطورة بلخ وبابل عظيمة في تاريخ الحضارة الإيرانية، حتى قيل – وينبغي أن يكون هذا قريباً من الحقيقة رغم البعد الجغرافي – "إن لهجة بلخ هي أقرب إلى لهجة عاصمة الساسانيين من اللهجات الأخرى".

لم يكتف الاستيلاء العربي بإسقاط الدولة الساسانية بل أزال نظام الطبقات والدين اللذين كانا مسيطرين في إيران قبل الإسلام؛ فلم يبق من المعتنقين للزردشتية القديمة إلا قليل من الأتباع يسمون "كبر" أو "بارث"

وعددهم قليل. على أن الإسلام لم يكن خالياً من التأثير فيهم أيضاً؛ فإن وحدة الإله التي جاء بها الإسلام انتصرت على العقائد الزردشتية القديمة. وزالت عادة "زواج الأب من البنت والأم من الابن والأخ من الأخت" التي تبيحها الزردشتية، ولو أن الإيرانيين وبالأخص الـ"كبر" لم يحجموا مدى القرون الوسطى عن ادعاء "عدم وجود الزواج من الأقارب في العقائد المجوسية" في إيران، مخالفين بذلك الحقيقة الواقعة. وكثير من الأمور التي ترجع إلى تاريخ إيران قبل الإسلام وُضعت في صور جميلة كهذه ولكنها بعيدة عن الحقيقة. وعظمة قصور الساسانيين، وشوكة دولتهم، وعقل الملوك والوزراء وتدبيرهم، وحضارة البلاد، كانت موضع إعجاب الفرس المسلمين وغبطتهم دائماً. وقد لفقوا أنواعاً من شجرات النسب الخيالية ليصلوا رجال الإسلام العظام بتاريخ الساسانيين بأي شكل.

يُعد علماء أوروبا النهضة القومية الإيرانية في العصر الإسلامي إحدى نتائج ظهور دول في إيران غير مرتبطة ببغداد؛ فهم يرون أن الدول الفارسية بل الدول التركية، قد عاونت على ترقية القومية الإيرانية لكي يحول الشعب وجهه عن بغداد. حتى قيل إن السلطان محموداً (٣٨٧- ٤٢٢هـ= ٩٩٧- ١٠٣٠م) نفسه الذي هو تركي الأصل والذي رعا شعراء إيران، ومنهم الفردوسي صاحب الشاهنامة، في قصره بغزنة، كان يعمل بهذه الفكرة نفسها. والحقيقة أن إقامة حياة جديدة في هذه البلاد التي انهار نظامها القديم كانت في ظروف سيئة جداً. وقد رضيت الدهاقنة في العصور الإسلامية الأولى في إيران، كأمراء الإقطاعيات في

أوروبا فيما بعد، بزوال خطورتهم السياسية لقاء ما نالوا من الدولة من المزايا الاقتصادية والاجتماعية. وكانت إيران عهد الساسانيين تبدو دولة عظيمة جديرة بأن تُتخذ المثل الأعلى حتى للعرب أنفسهم. فاتُّخذ تقليد المؤسسات التي كانت في إيران القديمة والاقتباس منها وسيلة لرفع عظمة الإسلام. وكان وزراء الخلفاء وولاتهم الفُرس يزعمون أنهم مؤمنون صادقون وموالي للخلفاء مخلصون.

ووجدت الشيعية أرضا ملائمة في الإيرانيين؛ إلا أن الخلاف المذهبي كان أقوى من القومية هنا أيضاً. وكانت مدينة "قُم" مركزاً للعصبية الشيعية منذ زمن بعيد مع أن أغلب سكانها من العرب. فاتفق الأشراف مع الشعب مؤقتاً لبلوغ غايتهم المنشودة. واجتمع الأرستقراطيون تحت رياسة أبي مسلم، وهو أحد رؤساء الشيعة، وحاربوا خلفاء الأمويين الأخيرين. ولما بلغوا الغاية تباينت المنافع فقُتل أبو مسلم، وقام أنصاره ضد العباسيين وقد ثابر البرامكة، وهم ممثلو الطبقة الأرستقراطية، على العمل لمصلحة الخلفاء العباسيين إلى أن صاروا ضحية رد الفعل الديني في أواخر خلافة هارون الرشيد. والمنازعات التي قامت بين الأمين والمأمون، ابني هارون الرشيد، تفسر بأنها ثورات ناتجة من رد الفعل نفسه. رفع المأمون علم الشيعية، إلا أنه ترك اللون الأخضر وهو شعار الشيعة، حين دخوله بغداد ولبس السواد شعار العباسيين. ولم يكن عمل الخليفة هذا بتأثير العرب، بل بتأثير طاهر رأس الإمارة الطاهرية الفارسية.

وقام الطاهريون كالبرامكة بخدمة العرب والإسلام، وعاونوا على الاستيلاء على البلاد الإيرانية الواقعة جنوبي بحر الخزر. وقد وفقت هذه البلاد للمحافظة على استقلالها ونظام حياتها القديمة حتى انهيار الدولة الساسانية، وانتقل الناس هنا أيضاً من الزردشتية إلى الشيعية. ولهذا الحادث علاقة بزوال نظام الإقطاع وملكية الأراضي الواسعة؛ فإن الخلاف على الخلافة وأهل السنة، كان في الحقيقة نزاعاً يخفي تحته مسألة الأرض. وفي مثل هذه الأحوال يلجأ الملوك إلى الشعب، كما حدث في أوروبا أيضاً، فيثيرون المزارعين المحرومين من الأرض ضد أصحاب الضياع الواسعة الذين هم "حلفاء العرب".

إن ازدهار حياة المدن وإنشاء مراكز حضارة جديدة زاد الحياة اضطراباً. وكانت أصفهان أشهر مدن إيران الكبرى في القرنين الثالث والرابع الهجريين (التاسع والعاشر الميلاديين)؛ فإن لدينا معلومات واسعة عن هذه المدينة وما جاورها بفضل اثنين من الجغرافيين اللذين نشآ فيها. وكان في هذا المركز العظيم للحضارة ممثلون لجميع الحرف يتنافسون فيما بينهم للتفوق. وأصفهان وطن أبي الفرج (في القرن الرابع الهجري والعاشر الميلادي) مؤلف كتاب الأغاني المشهور بالعصبية العربية، ولثمانية[١] من المترجمين الذين نقلوا قصص إيران إلى اللغة العربية. وكان بعض جهات أصفهان يسكنها كلها أنسال الطبقة الأرستقراطية من

---

(١) في الترجمة الأردية: "ولثلاثة من المترجمين الثمانية الذين اشتهروا بنقل الأساطير الإيرانية إلى العربية"، وهذا ينطبق على ما ذكره حمزة بن الحسن الأصفهاني في صفحة ٩ من كتابه تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء، المطبوع في برلين سنة ١٣٤٠هـ.

الدهاقنة الذين ظلوا – كأبناء الأشراف في بولندة – يتذكرون انحدارهم من العنصر الأصيل، بعد أن نزلوا إلى درجة المزارعين الصغار، ويحتقرون الطبقات الشعبية الدنيا، ولا يتزوجون إلا من أنفسهم. على حين كانت جهات أخرى من المنطقة نفسها أكثر سكانها من طبقات العامة التي ظهر فيها حتى في العهد الإسلامي – ولكن باسم آخر – مذهب الشيعية الذي كان فيها في عصر الساسانيين.

ولم يستطع الأدباء ورجال العلم الاتصال بجهة من الجهتين اتصالاً تاماً، وعلى العموم فإن عوامل مختلفة كعداوة العرب والسنية، والقومية الإيرانية، وحب الناس للشيعة وسائر الروافض.. كل هذا كان يجمع الشعب والأمراء الناشئين بين الطبقات الشعبية أو الذين يعطفون عليها، في صعيد واحد. وكانوا من جهة أخرى يشعرون بقرابة كبيرة للذين يمثلون آراء الطبقات الأرستقراطية المحافظة، للمحافظة على الطبقة الاجتماعية التي ينتمون إليها وعلى كيانهم الحضاري. فمن أجل كل الأسباب المذكورة كانت نهضة إيران الحضارية في أحوال مشوشة كثيراً ولم تُدرس إلى الآن دراسة كافية.

ولم يتخذ المسلمون الحروف العربية وحدهم، بل اتخذها الزردشتيون أيضاً؛ فنشأت لغة فارسية حديثة محتوية على كثير من الكلمات العربية. وأما بقايا الآداب البهلوية القديمة فقد كثر الغلط في فهمها لأنها فُهمت بصعوبات كثيرة وبدراسات العلماء الأوروبيين.

انتفع الشعر الفارسي الحديث بالأوزان الفارسية التي كانت قبل

الإسلام، إلا أن هذه الأوزان سميت بالأسماء العربية[1]، وعُدلت بطريقة ملائمة للقواعد العربية. لقد قدمت للخليفة المأمون حين دخوله مدينة مرو قصيدة فارسية نظمها شاعر يُدعى عباس. ويقول الشاعر في القصيدة المذكورة أنه "لم ينظم أحد بهذه اللغة قبله"، ولكن لغتها المذللة القريبة من لغة الشعر الأخيرة ومحتوياتها تدعو إلى الشك في نسبة القصيدة إلى ذلك العهد. ومع ذلك يمكن الفرض بأن شاعراً كهذا كان في ذلك العهد حقيقة. إذ أن ابن خرداذبة الذي ألف بالعربية كتاباً في الجغرافية في ذلك العهد، نقل في كتابه شعراً فارسياً لرجل يدعى عباس بن طرخان. فمن المحتمل أن يكون هذا الشاعر، هو نفس الشاعر الذي قدمت قصيدته للمأمون.

وقد أشير في هذا الشعر القديم اللغة، الغنى بصيغة النحوية، إلى وقائع خاصة بسمرقند وشاش (طشقند) غير واضحة وضوحاً كافياً، وذلك يدل على أن الشاعر من آسيا الوسطى. وفي هذا العهد نفسه كان هناك شاعر آخر يدعى محمد بن البعيث وله قلعتان على شاطئ بحيرة أرمية. وكان هذا الشاعر يكتب أشعاره بالعربية والفارسية. ويروي الطبري الذي ألف تاريخاً باللغة العربية، أنه كان لهذا الشاعر أشعار فارسية مشهورة في بلده؛ ولكنها لم تصل إلى زمامنا ولم يُعن بها مؤرخو الأدب الفارسي. ومن المعلوم أن هذا الشاعر اشترك في الثورة التي ثارت في آذربيجان

---

(1) هذا رأى عجيب فنحن لا نعرف شيئاً من الشعر الفارسي القديم، ونعرف الشعر العربي الجاهلي ونعرف الصلات المحكمة المتصلة بينه وبين الشعر العربي الإسلامي. فكيف يقال أن الأوزان العربية المتصلة السند التي نظم عليها الفرس في العصور الإسلامية كانت أوزاناً فارسية قديمة؛ لعل الأوزان الفارسية القديمة أثرت في الأوزان العربية التي استعملها الفرس، ولكن ما الأوزان الفارسية وما تأثيرها؟ لا ندري.

ضد العرب المسلمين في عهد المأمون، وانضم فيما بعد إلى العرب، ثم انفصل عنهم وثار عليهم.

ويروى أن الطاهريين (٢٠٥- ٢٦٠هـ = ٨٢١- ٨٧٣م) وهم أول أسرة إسلامية من أصل فارسي، لم يكونوا ينظرون إلى الأدب الفارسي نظرة حسنة، ويرون العناية به مخالفة للدين. ولكن ازدياد نشاط المانوية لا في خراسان التابعة لهم مباشرة فحسب، بل في البلاد الأخرى أيضاً (كانت السلطة العسكرية في بغداد بيد أحد الطاهريين بعد انتقال الخلفاء إلى سامرا)، أدى إلى ازدهار الحضارة عامة وازدهار الحضارة الإيرانية خاصة. وفي أيامهم نُقلت عاصمة خراسان من مرر إلى نيسابور التي صارت في مدة وجيزة إحدى مراكز الحضارة. وكانت مدينة بيهق – اسمها الحالي سبزوار – وهي قصبة ولاية بيهق، أهم مراكز الدعاية الشيعية. وقد أنجبت هذه المدينة كثيراً من الكتاب والعلماء منذ القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي). وفي شمالي نيسابور مدينة طوس وتقع بجوارها مدينة مشهد التي بها قبر علي الرضا إمام الشيعة المتوفى سنة ٢٠٣هـ (٨١٨م). وقد صارت هذه المدينة قصبة خراسان.

إن الذين عملوا على انتعاش الأدب الإيراني هم الملوك السامانيون (٢٦٢- ٣٦٨هـ ٨٧٥- ٩٩٦م) خاصة. وقد انتقل الحكم في خراسان وفي تركستان التي كان قسم منها بيد المسلمين، من حكم الطاهريين إلى حكمهم. وجذبت عاصمتهم بخارى كثيراً من الشعراء والعلماء؛ فصارت الدولة السامانية من أعظم الدول نظاماً في القرن الرابع الهجري. نشأ السامانيون في بلخ وكانوا إيرانيين. وكانت اللغة الفارسية هي اللغة الرسمية في

أيام أكثر هؤلاء الحكام. ومع ذلك فقد حَموا في قصورهم كتاب اللغة العربية إلى جانب كتاب الفارسية. وإذا استثنيت مدة ليست ذات خطر حوالي سنة أربعين من القرن العاشر الميلادي، فمن الممكن أن يقال أن السامانيين كانوا حماة أهل السنة؛ ففي أيامهم ألف كتاب في العقائد باللغة العربية لوقاية الشعب من الرافضية، ثم ترجم هذا الكتاب إلى الفارسية. وفي زمنهم أيضاً ترجم تفسير الطبري إلى الفارسية، كما ألف تفسير آخر بالفارسية، وأفتى الناس بجواز الصلاة باللغة الفارسية كاللغة العربية. وقد ادعى علماء الدين بأن الأنبياء المتقدمين كانوا يتكلمون الفارسية حتى زمن إسماعيل عليه السلام جد العرب.

وكانت هناك رواية منذ القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) تقول أن إبراهيم عليه السلام دعا ملوك إيران إلى اعتناق دينه وهو في قصورهم. إلا أن شعراء إيران المنشدين في قصور الملوك السامانيين كانوا يذيعون آراء لا تتفق مع الإسلام. فالشاعر الرودكي السمرقندي الذي اشتهر قديماً ثم نُسي قال: "لا معنى لتحويل الوجه إلى القبلة والقلب منجذب إلى القدسية المجوسية. ويجب الإيمان بحب الإله العام لجميع الأديان؛ فإن إلهك يقبل حبك ولكن لا يقبل صلاتك[1]". وقد أظهر هذا الشاعر نفسه بصراحة تامة محبته وإخلاصه للخلفاء الفاطميين الشيعيين[2]. وعبر عن السماء والأرض بأنهما أبو الإنسان وأمه. وهو يرمي بذلك إلى الآراء الخاصة بالمجوسية. وقال الرودكي عند وفاة أحد معاصريه: "إنه رفع روحه السامية إلى

---

(1) لو دلنا المؤلف على قول الرودكي بالفارسية لأمكن أن نقطع برأي في هذه المسألة ثم من الشعراء الآخرون غير الرودكي؟

(2) مات الرودكي قبل استيلاء الفاطميين على مصر بنحو ثلاثين سنة.

السماء، ووارى جسده الأسود التراب". وأما الشاعر الدقيقي الذي حاول نظم الأساطير الإيرانية لأول مرة فقد صرح بعلاقته بالعقيدة الزردشتية قائلاً إنه يفضل الخمر وشفتي حبيبه [ودين زردشت] على كل شيء آخر[١].

وفي القرن الرابع الهجري نفسه، عصر بني بويه (العاشر الميلادي)، أخذ المستولون على ساحل بحر الخزر الجنوبي يهاجمون البلاد الإيرانية المتفوقة حضارة، منتهزين فرصة ضعف الخلافة. وقد جعل بعض القائمين برياسة هذه الحركة إزالة الخلافة وإحياء الدولة الساسانية غاية صريحة له. ومن الدول التي نشأت من جنوب بحر الخزر الدولة البويهية، وهي التي استولت على بغداد وقضت على سلطان الخليفة الدنيوي، وطبع ملوك هذه الدولة على مسكوكاتهم كلمة "شاهنشاه"، وهو لقب ملوك إيران قبل الإسلام. ولم تكن الدولة البويهية دولة تديرها يد واحدة، أي أنها لم تكن دولة مركزية تابعة لحاكم واحد. فقد اقتسم أعضاء الأسرة فيما بينهم البلاد التي استولوا عليها. وكان التفوق السياسي ينتقل من شخص إلى شخص. ولم تكن للدولة عاصمة معينة؛ فالمدينة التي يقيم فيها الأمير الأقوى هي العاصمة، ومهما عمل هذا النظام في إضعاف الدولة، فإنه ساعد على رقي حضارة المدن وازدياد مراكز الحضارة؛ فكان كل أمير يجمع في قصره العلماء والشعراء مجتهداً في ترقية حضارة مدينته.

---

(١) يشير المؤلف إلى هذين البيتين وهما:

دقيقي جار خصلت بركز يده است   بكيتى أزهــه خوبى وزشـــتى

لب ياقـــوت رنك ونــاله جنك   مى خون رنك ودين زردهشتي

أي "الدقيقي اختار أربعة أشياء من كل الخير والشر في الدنيا: الشفة في لون الياقوت، وزمزمة العود والخمر القانية ودين زردشت"، وقد سقطت كلمة دين زردشت من أصل الكتاب وعليها يتوقف الاستشهاد. مقدمة الشاهنامة ص٣٨.

انتقلت الحياة الحضارية رويداً رويداً من مراكز الحضارة القديمة كبغداد والبصرة إلى المدن الإيرانية الجديدة أمثال الري (بجنوب شرقي طهران) وأصفهان وشيراز، وجمع فيها الأمراء كتباً وأنشأوا مكتبات كبيرة. ونالت العلوم الوضعية أيضاً حماية الأمراء. ويروى أنه كان بشيراز مرصد في زمن البويهيين، وقد أمكن بفضل دقة أجهزته أن يتقدم في بحث المسائل الفلكية بالقياس إلى العهود السابقة للإسلام. وأنشأ أحد الوزراء البويهيين في بغداد مجلساً للعلماء وخصص اليوم الأول لعلماء الفقه، واليوم الثاني للأدباء، واليوم الثالث لعلماء الكلام، واليوم الرابع للفلاسفة.

والحقيقة أن البويهيين لم يأتوا من جنوبي بحر الخزر بأي تراث أدبي؛ فمن أجل ذلك اندفعوا في تأثير الأدب العربي اندفاعا تاماً، ولم يقدروا للأدب الإيراني قيمة؛ فلم يشتهر أحد من شعراء إيران في البلاد التي لهم سلطان عليها. في حين أن الشعر الإيراني ثابر على التقدم في العهد نفسه، في البلاد التابعة للسامانيين والغزنويين، حلفائهم في إيران الشرقية.

وأما الفردوسي الذي نشأ في طوس بخراسان فقد ألف الأساطير الإيرانية ابتداء من عهد الأساطير إلى العهد الإسلامي، في قصة منظومة. وهو على رأس شعراء إيران الذين حفظوا شهرتهم إلى اليوم. ذكرنا آنفاً أن هناك شعراء حاولوا أن يصنعوا في القرن العاشر الميلادي ما صنعه الفردوسي فيما بعد[1]؛ فإن بعض المواضيع الأسطورية والآثار الأدبية

([1]) الفردوسي نظم الشاهنامة في القرن العاشر الميلادي أيضاً (الرابع الهجري).

الخاصة بالعصور السابقة للإسلام، كتبها بالفارسية الحديثة شعراء إيران المتقدمون معتمدين على تراجمها العربية أكثر من أصولها. ولكن شاهنامة الفردوسي بقيت كنزاً قومياً للشعب الإيراني كله. وكانت الشاهنامة الفردوسي كتاباً يقص البطولة؛ فقد رغب فيه الأرمن والكرج والترك من الأقوام المتأثرة بالحضارة الإيرانية. ولهذا الكتاب مكانة ممتازة في آداب العالم. إذ أن الأقوام الأخرى عاشوا عصورهم السياسية بعد أن فقدت أساطيرهم بهجتها بتأثير الكتاب. وأما الإيرانيون، فقد ثابروا في عهد الساسانيين وفي العصور الإسلامية الأولى، على الحياة تحت تأثير التقاليد الأسطورية، بالرغم مما بلغ الكتاب من التأثير؛ فمهما تغيرت الحال بازدهار حياة المدن وانقراض طبقة الأشراف في العهد الإسلامي، فإن الشاهنامة أنشأت كثيراً من المقلدين لها. فمن ذلك العهد حتى نهاية القرن التاسع عشر، دامت الإشادة بالأعمال الباهرة التي قام بها الملوك، على أسلوب الفردوسي. إلا أن هذه الكتب جميعها ضعيفة كتلك الكتب التي أنتجها العهد التقليدي (classique) المختلق في أوروبا. والفرق الوحيد هو أن الإيرانيين تابعوا أستاذهم القومي الكبير بينما الأوروبيون قلدوا اليونان.

لم يكن ممكناً في زمن الفردوسي إدراك ما ينتجه هذا الكتاب من النتائج من الوجهة الأسطورية. وكان خصوم الأساطير هم علماء الدين الذين ينكرون الإشادة بالأبطال المجوسيين بهذه الصورة، ولكنهم لم يكونوا قادرين على محو ما لهم من المكانة والشهرة. غير أنهم لم يتوانوا في إقامة العراقيل أمام أولئك الشعراء وهم أحياء. قدم الفردوسي قصته

إلى السلطان محمود ولكن القصة كان قد تم نظمها قبل جلوس السلطان محمود على العرش[1]. وقد تأثر السلطان بالبيئات الدينية، وهو يعد نفسه حامياً لأهل السنة، فخيب آمال الشاعر فيه؛ فثأر الفردوسي لنفسه من السلطان بقصيدة هجاه بها، ثم اضطر إلى البحث عن ملجأ له في قصور غيره من الملوك. ولم يجد الفردوسي عوناً من البويهيين المحافظين على التقاليد الساسانية. إن الشاعر الذي تأثر بضيق المعيشة نظم قصة يوسف وزليخا مستنبطة من القرآن وهو في قصر أحد البويهيين. وقد تبرأ الشاعر الشيخ في مقدمة منظومته هذه من كتابه السابق، وعاب على نفسه إشادته بأبطال المجوسية وبطولتهم المختلقة، ولما عاد إلى وطنه طوس، كان رجال الدولة قد نسوه؛ ولكن علماء الدين لم يعفوا عنه حتى بعد موته، وامتنعوا عن دفنه في مقابر المسلمين[2].

وهكذا ازدهر الأدب الفارسي في القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجريين (العاشر وأوائل الحادي عشر الميلاديين) في القسم الشرقي من إيران خاصة. إلا أن علماء إيران المؤلفين باللغة العربية وجدوا البيئة الأصلح لهم في غربي إيران. وكلما توثقت العلاقات بين الأقاليم زاد هذا الاختلاف اضمحلالاً. ولم تكن درجة اكتمال العلم في ذلك العهد تستدعي التخصص كما في أوروبا الآن. فكان في إمكان العلماء ممارسة علوم عديدة موفقين ناجحين في جميع تلك العلوم بدرجة واحدة، وأن يجدوا في الوقت نفسه فراغاً للنشاط الأدبي.

---

(1) يرجع إلى مقدمة الشاهنامة العربية للدكتور عبد الوهاب عزام لمعرفة تاريخ نظم الشاهنامة بالتفصيل.

(2) يرجع في تحقيق هذه الروايات إلى مقدمة الشاهنامة العربية.

ومن أولئك العلماء ذوي النواحي الكثيرة، ابن سينا. ولد في سنة ٣٧٠هـ (٩٨٠م) في إحدى قرى بخارى؛ وخدم الأمراء البويهيين في همذان وأصفهان؛ وكان وزيراً لآخرهم مدة. تلقى القرآن والآداب في طفولته على أستاذه في قريته، ودرس العلوم الرياضية والطبيعية على دعاة الإسماعيلية الذين كانوا يقدمون إلى بخارى في ذلك العهد. وأتم جميع العلوم ومنها الطب في الثامنة عشرة من عمره. وكان الطب أسهل العلوم عنده، وانتفع به فيما بعد كثيراً. واستصعب ابن سينا ما وراء طبيعة أرسطو، ولم يقدر على حل معضلات هذا العلم الكثيرة إلا بعناء كبير، مستعيناً بكتاب للفارابي وجده في السوق مصادفة وابتاعه بثلاثة دراهم. ومهد له علمه بالطب طريقاً إلى قصر أحد ملوك الدولة السامانية، ثم إلى مكتبة القصر الغنية. ولعل أحداً، غير ابن سينا. لم ينتفع بما في هذه المكتبة. وفي أواخر القرن الرابع غادر ابن سينا بخارى، ويحتمل أن يكون قد غادرها لأن الدولة السامانية قد أخذت تنقرض على أيدي الأتراك. انتقل أولاً إلى خوارزم، ثم انتقل من الأقاليم الواقعة على ساحل بحر الخزر إلى خراسان وإيران الغربية. وإلى علمه بالطب يرجع الفضل في اتصاله بالأمراء البويهيين. وكتابه الطبي المسمى بالقانون أحد مؤلفاته العلمية العظيمة، وقد وضعه مع تلاميذه. وتستعمل كلمة القانون في العالم الإسلامي، في معنى يخالف معناها في أوروبا، للقانون غير الديني، ويسمى بهذا المصطلح، كما كان في بوزنطة، بعض القواميس العلمية أيضاً لأنه في نظرهم "مجموع قوانين العلم". ويسمى كتابه الثاني الباحث في المنطق والحكمة والطبيعيات والرياضيات وعلم الفلك والإلهيات،

كتاب الشفاء. وقد ألف بن سينا مع تلاميذه معجماً لمختلف العلوم باللغة الفارسية لأمير أصفهان[1] وأُعطى المنطق المنزلة الأولى بين العلوم. ثم شُرحت أصول العلويات أي الإلهيات (ميتافيزيقا وتيولوجيا) والسفليات، أي الطبيعيات بالترتيب، ثم بُحث في الحساب والهندسة والهيئة والميكانيكا التي كان مجموعها يدعى في القرون الوسطى الحكمة الرباعية quadrivium. ولابن سينا بين مؤلفاته الكثيرة العدد كتاب منظوم بالعربية في الطب، ورباعيات صوفية بالفارسية. واشتغل في أواخر عمره بفقه اللغة العربية أيضاً. إن هذا النشاط العلمي والأدبي الواسع الخارق للعادة لم يمنع ابن سينا من أن يحيا حياة مضطربة. فتوفي عام ٤٢٨هـ (١٠٣٧م) ولما يبلغ الستين من عمره. ومع أن ابن سينا لم يكن في شعبة من شعب العلوم صاحب رأي جديد مستقل، فقد وفق لدرس كل علوم عصره دراسةً تامةً ولتأليفها في صورة مفهومة واضحة.

فمن أجل ذلك اكتسب شهرة عظيمة في العالم الإسلامي ثم في أوروبا فيما بعد. وقد اعتمدت الفلسفة التي نهضت في القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) في إيران على كتب ابن سينا واستمرت حتى القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي)، وقد اشتهر ابن سينا في البيئات الدينية أو الشعبية بضروب من السحر، كما كان الدكتور فاوست في القرون الوسطى.

---

(1) لعله يقصد الكتاب المسمى دانش نامه علائي.

وأما أبو الريحان البيروني (٣٦٣- ٤٤٠هـ = ٩٧٣- ١٠٤٨م) الذي عاصر ابن سينا والذي جادله في بعض المسائل العلمية جدالاً عنيفاً، فعالم يختلف عن هذا الطراز كل الاختلاف. إن هذا العالم المولود بخوارزم، إذا استثنى زمن رحلته إلى جرجان (حرقانية القديمة) الواقعة على الساحل الجنوبي لبحر الخزر، وزمن رحلته إلى الري، ظل في وطنه حتى بلغ الأربعين من عمره مستشاراً لأميرها. وأقام بعد ذلك في قصر السلطان محمود الغزنوي وخلفائه وقام برحلات عديدة إلى الهند. وبناء على قول أحد متخصصي أوروبا المعاصرين، أن هذا "المؤلف العديم النظير" ألف كتباً قيمة في قوانين الهيئة وفي أصول تواريخ الأقوام المختلفة chronologie، وألف كتاباً قيماً عن الهند يدل على نظر واسع وحياد علمي تام. وفي كتابه عن الهند معلومات واسعة عن الأديان والعلوم التي بها وقد استقاها البيروني عن منابعها السنسكريتية الهندية مباشرة[1].

كان للبيروني علم تام بمدارس بغداد والبصرة العلمية، إلا أن نظرات أولئك العلماء كانت متأخرة بالقياس إليه. لقد وصف الجاحظ وهو أكبر علماء البصرة في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) بأنه "ساذج سريع التصديق". ومع ذلك لم يبدع البيروني مذهباً جديداً لا في الرياضة ولا في الهيئة، بل ظل مؤمناً بالتنجيم مشاركاً معاصريه في ذلك. ومن كتبه نطلع على وجود "المتحررين من الآراء الشائعة" قبل البيروني؛

---

(1) هو كتاب: "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة" طبع في ليدن سنة ١٨٨٧م باعتناء المستشرق الألماني إدوارد سخاو.

فقد نظم عالم يدعى أبو سعيد الجزي، إسطرلابا معتمداً على نظرية حركة الأرض وعدم حركة الأجرام السماوية. ولم يتبع البيروني في هذه المسألة الرأي العام بل سماها مسألة مشكوكة عسيرة الحل. وقد تعجب أحد علماء العرب في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) من استصعاب البيروني مسألة حركة الأرض، مع أن هذا الرأي جرحه ابن سينا وجرحه من قبله الطبيب الفلكي الرازي (المتوفى سنة ٣٢٠هـ ٩٣٢م).

إن آراء البيروني في المعتقدات الدينية الغريبة وخاصة في الأديان الهندية لحرية بعناية قراء اليوم؛ فقد أدرك البيروني أن المعتقدات الدينية تابعة لأسباب واحدة في كل مكان. وكان يهتم بالفرق بين دين الخواص ودين العوام في كل موضع؛ فهو لا يعترض ولا ينقدُ مطلقاً حينما يشرح العقائد الدينية، وهو كذلك يحافظ ما أمكن على العبارات التي يستعملها معتنقو كل دين. وإذا قارن ديناً بدين آخر فإنما يقارنهما مقارنة علمية محضة. وفي القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) أتحفنا اليعقوبي في تاريخه بمعلومات مفصلة محايدة بالطريقة نفسها عن محتويات الكتب الدينية النصرانية. وفي القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) وفي قصر الغزنويين أيضاً ألف بالفارسية كتابا في الأديان. وقد ذكر البيروني كتاب أستاذه الإيرانشهرى (ولم تصل إلينا معلومات عن حياة هذا العالم ومؤلفاته) في النصرانية واليهودية والمانوية. ولكن حينما ذكر بحثه في أديان الهند قال أنه أخطأ فيها بعض الأخطاء لتصديقه كلام رجال لا يجيدون معرفة أديانهم. إن مؤلفات البيروني تشغل مكانة ممتازة بين منتجات الأدب الإسلامي المعلومة لنا، من حيث وفرة موادها وما

فيها من الاعتناء بتطبيق الأصول العلمية. ومع ذلك أظهر عصبيته الإيرانية حينما ذكر الحضارات السابقة للإسلام وهدم العرب لها؛ البيروني شيعي في آرائه الدينية. وهو ككل إيراني مثقف تثقيفاً عالياً، يظهر محبة نحو المانوية. ولا يميل إلى أي نوع من الإصلاح في السياسة، وكان "الاتحاد بين الدين والدولة" بتعبير اليوم، مثله الأعلى النظام السياسي وغاية للرغبات الإنسانية، وكان هذا أمنية الغزنويين. ولعل السبب لعدم انتشار كتب البيروني كونها مؤلفة بلغة عسيرة جداً. إنها شغلت مكاناً جديراً بها لدى العلماء زمناً طويلاً، ولكنها كانت بالإجمال قليلة التأثير. وقد ترجم يهودي إسباني يدعى إبراهام بن عزرا أحد هذه الكتب، وهو جداول الهيئة، إلى اللغة العبرية في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي). وفي الجملة ظلت كتب البيروني مجهولة عند الأوروبيين حتى القرن التاسع عشر. ويقول البيروني نفسه إنه إنما ألف كتبه للعلماء لا للعوام. وليس نشاط البيروني في ساحات مختلفة كابن سينا. وقد ترجم مع مؤلفاته العلمية بعض القصص الإيرانية إلى اللغة العربية، وكتب أشعاراً عربية، إلا أنه كان يعد اشتغاله بالأدب تسلية للنفس لا غير.

والخلاصة أن القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) يُعد عصر انقضاء العهد الذهبي للحضارة الإسلامية وبدء دور الانحطاط؛ إلا أن التقدم في بعض شعب الحياة الحضارية دامت بضع قرون أخرى في إيران على الأقل. وقد انتقلت الحياة في القرن الخامس الهجري بشكل قطعي، من الشهرستانات القديمة إلى الأحياء المنشأة في العهد

الإسلامي، وتكونت في كل مكان أصول حياة المدن كما أوضحناها سابقاً. ولكن اتساع المدن اتساعاً أكثر كان في العصور المتأخرة. وكان محيط دائرة مدينة أصفهان، وهي أكبر مدينة في القرن الخامس الهجري نحو عشرة أكيال ونصف.

قد أخذ ازدهار فن العمارة يبدو شيئاً فشيئاً، وأقدم أثر إيراني إسلامي معروف التاريخ وصل إلى زماننا هو الضريح المقام على قبر قابوس ابن وشمكير أمير جرجان، يرجع إلى نهاية القرن الرابع (بداية القرن الحادي عشر الميلادي). وأنشئ هذا المبني الذي أقيم في ٣٩٧- ٣٩٨هـ (١٠٠٦- ١٠٠٧م) على الطراز الخاص المعروف كثيراً في البلاد الواقعة على ساحل بحر الخزر والقوقاز والظاهر في منارات الكنائس أيضاً (شكل مخروطي ذو أضلاع متعددة). وقد سمى هذا الضريح في كتابته العربية قصراً. وسمى الأضرحة الشبيهة به بهذا الاسم نفسه في بعض جهات إيران كأصفهان مثلاً. ويسميه سكان تلك الجهات في أيامنا كنبد (قبة). ولعل تغيير أسماء هذه الأضرحة ناشئ من بناء الأضرحة في الأزمان الأخيرة ذات قباب، ومن أقدم القباب المبنية على هذا الطراز البناء المقام على قبر السلطان سنجر بمدينة مرو، أنشئ في أواسط القرن السادس (الثاني عشر الميلادي) بقبة واطئة. وضريح قابوس بناء ارتفاعه مائة وخمسة وسبعون قدماً، يعتمد على جدران سمك كل واحد منها أربعة أذرع مبنية بالآجر. ولم يمكن في العصور المتأخرة إنشاء مبان ذات نفقات باهظة إلى هذا الحد. والآجر المستعمل في المباني المتقدمة هو في الجملة أجمل من الآجر المستعمل في المباني المنشأة

في العصور المتأخرة وأحسن وأكبر حجماً. إلا أن استعمال الآجر لم يكن كثيراً في تلك الأزمان، وأخذ الناس يتعودون في العصور الأخيرة، كما في مدن أوروبا الآن، استخدام المواد الرديئة للتقليل من تكاليف المنشآت.

إن تاريخ فن العمارة الإسلامي في إيران لم يكتب إلى الآن كتابة جديرة به، ولا يزال شرحه شرحاً وافياً في حاجة إلى أبحاث كثيرة؛ فطراز المساجد في عصر الدولة البويهية مجهول. يقول ناصر خسرو، وهو مؤلف إيراني في القرن الحادي عشر الميلادي: "كانت في كل مملكة جوامع شيعية، كل جامع يمتاز عن غيره بجمال" ولكن لم يبين هندسة تلك المباني، وأما تقارب طراز فن العمارة في البلاد المختلفة – حيث يرى هذا التقارب – فكان بفضل النجاح الذي نالته الدولة التركية السلجوقية التي نشأت من آسيا الوسطى؛ فقد استولى السلاجقة على جميع إيران في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، وسيطروا حيناً على جميع البلاد الإسلامية من البحر الأحمر والأبيض المتوسط إلى حدود الصين.

عصر السلاجقة

كان يُنتظر هجمات من البلاد الواقعة شرقي إيران إلى غربيها، منذ القرن الثالث الهجري (بداية القرن العاشر الميلادي)، وكان البويهيون – رغم حمايتهم للفلسفة وخدماتهم للحضارة – يُعدون طلائع برابرة

سواحل بحر الخزر، المخلين بالرفاه والنظام، على عكس السامانيين؛ فكان يتوقع ظهور ملك عالم فيلسوف من الشرق، من خراسان التي كانت في حكم السامانيين، ويُرجى إعادته للنظام في الغرب. إلا أن الآمال المنتظرة لم تتحقق كاملاً؛ فبدل قدوم ملك عالم إلى الغرب، جاءت طلائع قوم رحل متأخرين عن مواطني البويهيين حضارة؛ فإن سلاطين السلاجقة لم يقدروا على تعلم القراءة والكتابة حتى بعد حكمهم في إيران مائة عام. ولما انقرضت دولتهم في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) انتقل الحكم إلى دول معظمها من الترك. ورغم هذه الحالة هيأت فتوح السلاجقة ساحات واسعة لا لشعراء خراسان وفقهائها فحسب، بل للذين حفظوا التقاليد السياسية لعصر الغزنويين. ومنهم الوزير نظام الملك الطوسي الذي كان مدة طويلة (٤٥٧– ٤٨٥هـ= ١٠٦٤– ١٠٩٢م) أكثر رجال الإمبراطورية السلجوقية نفوذاً.

أُتخذت في عصر السلاجقة وسائل للمحافظة على ترقية حياة المدن ورفع شأن التجارة والصناعة، وأُنشئت مبان عظيمة حفظ بعضها إلى اليوم. وتكونت في إيران الغربية مدن محاطة بأسوار مبنية بالآجر، ووجد شعراء إيران في قصور السلاجقة والأسر التي تلتهم في الحكم حماية وتشجيعاً. وقد قُدمت قصة تسمى ويس ورامين إلى السلطان السلجوقي الأول في ٤٤٠هـ (١٠٤٨م). وهي قصة مترجمة إلى الفارسية الحديثة من اللغة البهلوية القديمة التي كانت في ذلك العهد منسية تماماً، ترجمها فخر الدين أسعد الجرجاني. ويؤخذ من قوله أن

الكتب المؤلفة بهذه اللغة ما كان كل واحد يستطيع قراءتها والذين يقرأونها لا يفهمونها. إن اثنين من شعراء إيران، وهما أنوري شاعر السلطان سنجر، ونظامي الذي عاش في كنجه بالقوقاز ومات بها والذي اشتهر بقصصه المنظومة، يُعدان أكبر شعراء إيران باعتراف الإيرانيين أنفسهم. ويجعل بعض العلماء الأوروبيين كذلك مكانة نظامي بعد الفردوسي. وأثرت مؤلفات نظامي في الشعر التركي أيضاً لا في الشعر الإيراني وحده.

ضمن السلاجقة تفوق أهل السنة في إيران، ولكنهم لم يقدروا على إزالة الشيعية منها إزالة تامة؛ ففي القرنين الخامس والسادس الهجريين (الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين) كان عهد جدال ديني عنيف في إيران، ولكن تفصيلاته لم تدرس إلى اليوم دراسة وافية. واتجهت الدعاية الإسماعيلية في نهاية القرن الخامس الهجري إلى جهة جديدة؛ فاستولى الإسماعيلية على أماكن كثيرة حصينة في كل أرجاء إيران، بل في سورية أيضاً. وهذا يدل على أن هذه الحركة لم تكن حركة قومية محضة. ويجب أن تكون منافع الطبقات ذات شأن خطير فيها. لم يكن الصراع الحالي بين أصحاب الأراضي وبين الذين يعملون فيها كما حدث في القرن التاسع عشر، بل كان بين أصحاب القلاع المحصنة وبين سكان المدن. وكانت معاقل الإسماعيليين الجهات التي لم تزدهر فيها حياة المدن إلا قليلا، وخاصة قُهستان (بلاد الجبل) الواقعة بجنوب غربي خراسان التي كان ثلثا قلاع الإسماعيلين بها. ثم المنطقة الجبلية في شمالي قزوين التي كان يقيم بها رئيس المذهب في قلعة الموت

الحصينة. وقد وقع أشد الصراع في ولاية فارس التي بها المدن الكبرى والقلاع الحصينة في أطراف أصفهان. ولم يكن الإسماعيليون يتورعون من القضاء على خصومهم باغتيالهم غير مكتفين بحربهم جهاراً، وكانت للمذهب هيئة سرية مكونة من الفدائيين المغالين في التعصب، يؤمن أفرادها بإمكان قتل من يريدون قتله أيا كان هو. وكان لتعاطي الحشيش تأثير في شجاعة هؤلاء المتعصبين، وقد أخذت كلمة أساسين الفرنسية من كلمة الحشاشين العربية، أي المتعاطين للحشيش. وتدل هذه الحالة على أن نظام الإسماعيلية ترك تأثيراً شديداً في الأوروبيين في القرون الوسطى. لم تكن حصون الإسماعيليين لتدبير الاغتيالات السياسية فحسب، بل دُبرت فيها أمور حضارية أيضاً؛ فكانت لمكتبة ألمون ومرصدها شهرة واسعة. ونشأ من هذه القلعة عدة من العلماء قاموا بخدمات جليلة في إيران في العهد المغولي. ومن هؤلاء العلماء نصير الدين الطوسي صاحب المؤلفات في الفلسفة والهيئة والرياضة وفي العقائد الشيعية. ورشيد الدين المؤرخ اليهودي الأصل الذي نشأ من مدينة أصفهان.

كان الإسماعيليون قوة سياسية لا يُستهان بها، وإن لم تكن لهم ساحة معينة مجتمعة. عملوا أولاً مع خلفاء مصر الفاطميين، ونشروا دعاياتهم بأسمائهم وعلى حسابهم. ولكن ساءت صلتهم بالفاطميين في نهاية القرن الخامس الهجري بل حدث في نهاية القرن السابع تفاهم بينهم وبين الخلفاء العباسيين، حماة أهل السنة، أدت إليه عداوتهم جميعاً لسلاطين الترك.

وأما الثورات التي قامت في مدينة الري وأصفهان ونواحيهما قبيل هجوم المغول في القرن السابع (الثالث عشر الميلادي)، فليس بمعلوم إلى اليوم هل كان للدعايات الإسماعيلية أثر فيها أم لا؛ فقد كان فيها نزاع بين الحنفية والشافعية، وهما شعبتان من أهل السنة، غير المنازعات بين الشيعة وأهل السنة؛ فمع الشيعة أكثر القرويين، ومع الحنفية أكثر أهل المدن. ولكن الشافعية انتصروا على جميع خصومهم في الرأي، ولعل نضالا استمر هنا تحت ستار الدين وهو في الحقيقة نضال اجتماعي بين القرية والمدينة، وبين الطبقة الأرستقراطية والطبقة الديمقراطية المقيمة في المدن.

إذا لزم الحكم في هذه المسائل، اعتماداً على التمحيصات العلمية الحالية، تبين أن قواد الشعب في حركاته السياسية والحضارية في ذلك العهد، كانوا لا يزالون بعيدين عن الآراء السياسية والقومية؛ فإننا نجد مجهودات فردية من مدن وأقاليم مختلفة لتحسين الحياة فيها، زيادة على الصراع بين الطبقات، وفي هذا العهد ظهرت مجموعات تاريخية Compilation أكثر بحثها في مدن وأقاليم مستقلة. وقد ضاقت فكرة إنشاء دولة إسلامية عامة، بل إنشاء دولة إيرانية رويداً رويداً بسبب تخصص الأقاليم الذي نشاهده بعد انقسام الدولة السلجوقية الكبرى خاصة. وكان رأي "وجوب عدم إخراج الضرائب المحصلة من سكان كل إقليم لتحسين حالتهم المحلية، أي عدم اجتماع الأقاليم المختلفة تحت حكم دولة واحدة" يُعد من الحقائق التي لا سبيل لردها. وكان نتيجة هذه الحالة عدم الاعتراف للدول الكبرى بالتفوق على الدول الصغرى، ولكن

جمع السلطان محمد الملقب بخوارزمشاه أي ملك خوارزم، قسما من آسيا الوسطى وكل إيران تحت حكمه في أواخر القرن السابع (الثالث عشر الميلادي). ويرى ابن الأثير المؤرخ المعاصر أن سهولة استيلاء المغول من هذا السبب؛ فلو كانت هناك دول كبيرة متعددة كما كانت سابقاً لاضطر المغول إلى أن يهزموا كل دولة منها منفردة. ولكن خوارزمشاه قد قضى على الدول الأخرى، فلم يجد المغول أمامهم عدواً بعد أن هزموا الدولة الخوارزمشاهية.

لم يكن ازدهار حياة المدن خالياً من التأثير في التجارات الداخلية والخارجية والبرية والبحرية رغماً من اشتداد الانفصال والتفرق السياسيين. وأما التجارة البحرية مع الهند والصين فقد حسنت حالة مدينة هرمز وجزيرة قيس الواقعة عند ملتقى خليج البصرة ببحر الهند. وقد نتج عن العلاقات التجارية بين خوارزم وحوض نهر فولجا أن اعتنق بلغار إيديل الدين الإسلامي منذ القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ولعل هذه التجارة زادت نشاطاً في العصور التي تلته. وكانت صادرات ساحة البلغار والبلاد المجاورة لها في القرن العاشر الميلادي هي الفراء والجلود المصنوعة صناعة دقيقة، والعسل وشمعه والسمك. وكانت مدينة بلغار الواقعة على شاطئ نهر فولجا بلدة صغيرة بيوتها مبنية بالغاب واللبد وقليلة السكان. ولما قدم المغول صارت مدينة ذات مبان حجرية لا يقل سكانها عن خمسين ألف نسمة، وترقت صناعة الجلود فيها كثيراً. ثم ورثها الروس. وكانت الأحذية البلغارية من أهم صادرات هذه المدينة ولها شهرة واسعة حتى في التركستان. ولا توجد سجلات تاريخية

عن تعارف تجار العرب والإيرانيين مع الروس مباشرة. وقد شرع الروس في مهاجمة البلاد الإسلامية منذ القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وهدموا مدينة بردعة الواقعة على حوض نهر "كُر" وهي من المدن الرئيسية بالقوقاز من حيث كثرة السكان. ثم بلغ الروس كذلك مع البلغار لأجل التجارة جهات "خوالم" أو "خوالن" أي حتى بحر خوارزم (بحيرة آرال) ومنه إلى "أورنج" أي "أوركنج" وهي عاصمة خوارزم. وكانت للكتان الروسي شهرة كبيرة في الشرق.

وانتشر الدين الإسلامي في القرن الرابع للهجرة في قبائل الترك الرحل وفي بعض مدن التركستان الصينية بواسطة التجارة وبدون استخدام أي سلاح؛ فكان الأتراك الذين استولوا على البلاد الإسلامية في القرن الرابع الهجري مسلمين. وتوغل التجار المسلمون فيما بعد نحو الشرق، وكانت التجارة بين الصين وبلاد المغول بأيديهم في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) وقد وُجد المسلمون في جيش جنكيزخان حتى قبل فتوح الشرق. إلا أن نجاح التجارة الإسلامية هذا لم يُنتج دعاية دينية إسلامية كما حدث في التركستان وسواحل فولجا. وُجد الأدب النصراني والمانوي في اللغة الصينية منذ القرن الثامن الميلادي ولم يكن عدد المسلمين في الصين أقل من عدد النصارى والمانويين، ومع ذلك لم يظهر الأدب الإسلامي فيها إلا في القرن السابع عشر الميلادي. وأما في بلاد المغول فلم يعتنق منهم قوم الديانة الإسلامية بعد هذا التاريخ أيضاً. في حين أننا نرى منهم من اعتنق المانوية في القرن الثامن الميلادي والنصرانية في القرن الحادي عشر الميلادي. وكان مسلمو إيران

أكبر ممثلي التجارة والحضارة للأتراك والمغول؛ فكلمات "سارت، سارتاق، وسارتاول" التي نقلها الترك سابقاً من الهند بمعنى التاجر، صارت اسماً أطلقه الترك والمغول فيما بعد على الشعب الإيراني المستقر. ثم خلقت الأساطير المغولية بطلاً يدعى "سارتاقتاي" يبني الخوازن ويحفر الترع (وكلمة تاي أداة تلحق بآخر أسماء الذكور في اللغة المغولية).

ولعل التجارة مع الممالك غير الإسلامية كانت بطريقة المبادلة، وكانت المعاملات التجارية مع روسيا الجنوبية تجري على أساس السكة الفضية حتى بداية القرن الحادي عشر الميلادي. وقد أُدخلت في روسيا كمية كبيرة من السكة الفضية التي وردت إلى الممالك الإسلامية. ثم تحول نظام السكة الفضية الذي بقي من عهد الدولة الساسانية إلى نظام السكة الذهبية. وفي نهاية القرن الخامس الهجري (نهاية القرن الحادي عشر الميلادي) أخذ العالم الإسلامي يحس بأزمة السكة الفضية، ثم انتقلت هذه الأزمة رويداً رويداً من الشرق إلى الغرب فضُربت سكك نحاسية بدل الدراهم الفضية. على أن التعامل بالسكك النحاسية لم يتجاوز الأقاليم التي ضربت فيها. ودخل هذا النظام في الدولة العباسية أيضاً في القسم الغربي من آسيا. إلا أن السكة الفضية أعيد ضربها في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي). وأما في الشرق فقد كانت السكك النحاسية مستعملة فيها حتى في عهد قدوم المغول إليها. ولكن لا تدل المراجع التي بأيدينا على ما كان لتغير نظام السكة من التأثير في حياة الشعوب الاقتصادية وخاصة في التجارة.

الفصل الخامس

فتوح المغول وتأثيرها في الحضارة الإيرانية

كان التجار المسلمون مستشاري جنكيزخان الأول، وعاونوه معاونة كبيرة في محاربة العالم الإسلامي، والسبب الرئيس لحروب جنكيزخان هذه هو السلطان محمد ملك خوارزم (خوارزمشاه). فقد نهب حاكم أوترار (في التركستان) القريبة من الحدود قافلة قادمة من بلاد المغول، وقتل أربعمائة وخمسين رجلاً من المرافقين لها في سنة ٦١٥هـ (١٢١٨م). وفي سنتي ٦١٧ و٦١٨هـ (١٢٢٠- ١٢٢١م) استولى المغول على جميع التركستان وخوارزم، ولم يكن بد من معاودة الحرب في الشرق الأدنى مرات عدة. ولم تقع بغداد في أيدي المغول إلا في ٦٥٦ (١٢٥٨م). وبهذه الصورة تألفت دولة مغولية كبيرة محتوية على إيران وما بين النهرين وآسيا الصغرى، وبقيت التركستان في سلطان فرع آخر من الدولة الجنكيزية. وقد أُخرِبت قلاع الإسماعيليين مع دولة السلطان والخليفة، ولم ينشئ المغول قلاعاً جديدة بعدها. وأما الإمارات المحلية التي بإيران الجنوبية فخضعت للمغول باختيارها ولم تتخل عن الحكم إلا في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)، وسلمت ولايتا فارس وكرمان من عادية الجيش المغولي. ودامت الحياة القديمة في المدن الكبرى وخاصة في شيراز؛ فلذا اكتسبت فارس خطورة عظيمة

لم تنلها من قبل من حيث الحضارة الإيرانية[1]. وقد حمت الأدبَ الفارسي الدولة السلغورية التي اجتازت فتوح المغول سليمة، والدولة المظفرية التي حكمت نصف قرن بعد تفرق الدولة المغولية؛ فبأولى الدولتين يرتبط اسم الشيخ سعدي شاعر القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، وبالثانية اسم حافظ الشيرازي شاعر القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) ارتباطاً وثيقاً. وقد قُرئت كتب هذين الشاعرين اللذين لم يفقدا مكانتهما إلى الآن – وخاصة حافظ – وعُلمت في جميع البلاد التي كانت تحت تأثير الحضارة الإسلامية[2]. وأخرجت شيراز كذلك عالمين كبيرين للعالم الإسلامي: أحدهما قطب الدين المتوفى سنة ٧١٠هـ (١٣١٠م) الفلكي العظيم الذي بحث عن طرق حديثة في ساحة العلم. وثانيهما المهندس المعماري الكبير قوام الدين المتوفى سنة ٨٤٣هـ (١٤٣٩م). وقد عد بعض العلماء جامع كوهر شاد الذي بناه قوام الدين في مدينة المشهد أعظم أثر لفن العمارة الإيرانية[3].

---

(1) يظهر من كلام الشيخ سعدي الشيرازي في كتابه "البستان" أن أمير فارس أبا بكر بن سعد بن زنكي صالح المغول على مال فرجعوا عن غزو بلاده فهو يقول للأمير:

سكندر بديوار روئين وسنك	بكرداز جهان راه يأجوج تنك
ترا سد يأجوج كفر ازز راست	نه روئين جو ديوار اسكندر ست

إن الإسكندر أقام سداً من الحديد دون يأجوج ومأجوج وأنت أقمت سداً من الذهب في وجوه الكفار.

(2) لا شك أن كتب الشيخ سعدي ولاسيما كلستان كانت أكثر رواجاً في دور، من ديوان حافظ.

(3) في رحلات عبد الوهاب عزام الأولى كلمة عن هذا الجامع في الكلام عن مدينة مشهد.

إن الزعم بأن الحياة المدنية "لم تدم إلا في البلاد التي نجت من هجمات المغول"، زعم خاطئ. فُتحت بلاد متحضرة بأيدي قوم لم يتجاوزوا بعد درجة تقديم الإنسان قرباناً. وضُرب أحياناً جميع الناس بالسيوف حين الاستيلاء على المدن، ولم ينج من الموت إلا الصناع الذين يحتاج إليهم الفاتحون على أن يكونوا أسرى؛ فالذين شاهدوا أمثال هذه المشاهد المخيفة، ظنوا بالطبع أن إصلاح تلك البلاد من جديد يحتاج إلى آلاف السنين. ونظر علماء أوروبا المندفعون في تيار هذه الآراء إلى الضربة التي أصابت آسيا وشرقي أوروبا من هجمات المغول على أنها أقوى بكثير من الضربة التي أصابت أوروبا الجنوبية من هجرة الهون من قبل، ولا يمكن معالجتها. والحقيقة أن نتيجة استيلاء المغول لم تكن سيئة إلى هذا الحد. وأول أسباب هذا أن الفاتحين لم يستوطنوا هذه البلاد. وقد اصطحب ملوك المغول مع قواتهم العسكرية التي لم تكن كبيرة العدد، مستشارين مدنيين للاستعانة بهم في الشئون الإدارية والتعمير؛ فإنا نرى في تاريخ البلاد التي استولى عليها المغول: في الصين، وفي البلاد الإسلامية وفي روسيا بعد القرن الثالث عشر الميلادي، استقراراً سياسياً لم يكن يوجد فيها من قبل. ولا شك في أن ملوك المغول لم يُعنوا بالآداب المحلية، ولم يبالوا بالعلوم الدينية بالطبع قبل اعتناقهم الإسلام، ولكنهم اجتهدوا لإنهاض حياة المدن وترقية الصناعة والتجارة، مراعين في ذلك منافعهم الخاصة. وقاموا بحماية العلوم ذات الخطورة العملية الخاصة كالطب والرياضة والهيئة. وقد أنشأ هولاكوا، حفيد جنكيزخان وفاتح إيران، للعالم الفلكي نصير الدين

الطوسي، مرصداً في المراغة بآذربيجان مجهزاً بأدق الأجهزة المعروفة في زمانه. ومع أن المغول كانوا متوحشين في حكمهم لم يستلزم عهدهم "الانتقال من التبادل بالنقد إلى التبادل بالسلع، ومن حياة المدينة إلى حياة القرية" كما حدث في عهد الجرمان في أوروبا. ولم تدم جباية الضرائب عيناً (من الأشياء كالحبوب والأقمشة) مدة طويلة بعد موت جنكيزخان؛ فمنذ عهد حفدته تعود المغول نظام النقد. وبدل بنظام السكة الذهبية، نظام السكة الفضية؛ فلما تم استقرار السكة الفضية ألغى سك الدراهم النحاسية رويداً رويداً. ولم يكتف المغول بإصلاح المدن المخربة فحسب بل أنشأوا مدناً جديدة (كمدينة السلطانية التي بنيت بين تبريز وطهران) وصارت تبريز وهي عاصمة آذربيجان مدينة كبيرة في عهد المغول لا تقل عن مدن إيران القديمة اتساعاً وثروة. وأنشئت في عهد ملوك المغول في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) مبان كبيرة تدل على نهضة فن العمارة الإيرانية من جديد. ومن هذه المباني جامع ألجايتوخان (٧٠٤- ٧١٦هـ = ١٣٠٤- ١٣١٦م)[١] في مدينة السلطانية، وجامع ابنه أبي سعيد خان (٧١٦- ٧٣٦هـ = ١٣١٦- ١٣٣٥م) الذي بقصبة ورامين شرقي طهران.

إن الدولة المغولية جمعت البلاد المتحضرة من بلاد الشرق الأدنى والشرق الأقصى تحت سلطان أسرة واحدة وقوم واحد. وساعدت هذه الحال مساعدة عظيمة في الشئون المدنية، لا في تبادل التجارة

---

(١) ألجايتو بن أرغون بن أباقا بن هولاكوخان من نسل جنكيزخان، وهو الثامن من ملوك الدولة الإيلخانية المتفرعة من الدولة الجنكيزية. وقد تسمى بعد تشرفه بالإسلام بغياث الدين محمد خدابنده.

فحسب؛ فتجارة القوافل بين الشرق الأدنى والصين كانت معروفة من قبل، ولكنها ازدهرت فيما بعد ازدهاراً لم يسبق له مثيل قط. وانتفع الأوروبيون أيضاً بطرق القوافل هذه منذ أسرة "بلولو"[1] من تجار البندقية. وظلت العلاقات وثيقة بين الدولة الإيرانية والدولة الصينية المغولية اللتين كانتا في إدارة شعبتين منفصلتين من نسل جنكيزخان حتى انقسام الدولة إلى أقسام عديدة. وتقرب ملوك المغول بعد ذلك إلى الدول الأوروبية أيضاً للعداوة المشتركة بينهم ضد سلاطين مصر من المماليك. وانتفع تجار أوروبا ومبشروها بالطريق البحري من الثغور الإيرانية إلى الهند والصين زيادة على طريق القوافل المارة بآسيا الوسطى. وبهذا يفسر الرقي المدني البارز عند الأوروبيين في القرن الثالث عشر الميلادي إلى حد ما. إلا أن التفوق المدني كان في تلك الأزمان للعالم الإسلامي وخاصة في إيران. وإن كان في تاريخ إيران عهد وقف فيه الشعب الإيراني في الصف الأول من حضارة العالم فهو العهد المغولي، مع أن كثيراً من العلماء يذهبون إلى أن المغول لم يعملوا في إيران غير تخريب الحضارة.

وكما يحتاج الرحالون المسلمون اليوم إلى الاستعانة بعلوم الأوروبيين ليعرفوا ما يهمهم، كذلك كان رحالو أوروبا في ذلك العهد

---

(1) هو ماركوبولو الرحالة الشهير، ولد في مدينة البندقية سنة ١٢٥٤م، ورحل مع أبيه نيقولا وعمه ماتيوس إلى بلاد الصين عن طريق بدخشان وصحراء غربي آسيا الوسطى. واستطاع أن ينال ثقة قبلاقا آن ملك المغول الذي كلفه بالقيام ببعض أعمال في بلاد الصين. وعاد إلى أوروبا سنة ١٢٩٥م بثروات طائلة وأخبار عجيبة أدهش بها مواطنيه. وترك ماركوبولو كتاباً جليلا محتوياً على ما شاهده أثناء رحلاته الطويلة. وتوفي بالبندقية سنة ١٣٢٥م.

محتاجين إلى الرحالة المسلمين. فقد ذكر ماركوبولو كثيراً من الأسماء الجغرافية كما ينطقها الفرس وهو يصف بلاد الصين التي رآها بعينيه. وظهر علماء الفلك من الصينيين في إيران في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) ولكن خدمات الفلكيين الإيرانيين في الصين كانت أعظم. وقد كان علم الهيئة فيها تحت تأثير الإيرانيين التام، واستطاعوا المحافظة على سيطرتهم هذه حتى بعد انقراض الحكم المغولي في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)، ولم يتخلوا عنه إلا في القرن السابع عشر، فتركوه مرغمين لليسوعيين الذين قدموا من أوروبا. ثم إن كتب الهيئة الفارسية ترجمت إلى اليونانية في بوزنطة في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) أيضاً. ورأى ملوك المغول في إيران تأليف كتاب في التاريخ[1] جامع للروايات التاريخية لجميع الأمم التي تدخل في الإمبراطورية المغولية أو التي لها علاقة بالمغول من الصينيين إلى الإفرنج (سكان أوروبا الغربية). ونُفِّذ بعض هذا العمل. وكلِّف القيام به رشيد الدين الذي كان يهودياً وأسلم، وكان يعاونه رجل مغولي عالم بالروايات التاريخية المغولية، واثنان من علماء الصين، وراهب بوذي من كشمير وعدة من علماء إيران. وربما كان معهم راهب فرنسي أيضاً. حاول رشيد الدين تسجيل الروايات التاريخية كما سمعها من رواتها بدون تغيير؛ فليس كتابه من هذه الوجهة تاريخاً علمياً بالمعنى المفهوم

---

(1) هو كتاب "جامع التواريخ" لخواجه رشيد الدين فضل الله المقتول سنة ٧١٨ الهجرية، وكان وزيراً للسلطان غياث الدين خدابنده محمد. وهو تاريخ بالفارسية مؤلف من مجلدات عدة. طبع منها المجلد الثاني المشتمل على تاريخ الدولة المغولية من عهد أوكتاي قا آن حتى تيمورلنك، بليدن سنة ١٩١١ ضمن مجموعة جب التذكارية بتصحيح المستشرق ادكار بلوشيه؛ وطبعت منه في باريس سنة ١٨٤٤ قطعة خاصة بتاريخ هولاكوخان، بتصحيح المستشرق كترمير؛ ونشر المستشرق الألماني كارل يوحنا الجزء الخاص بتاريخ الملك غازان، في مجموعة جب التذكارية عام ١٩٤٠. وله نسخة عربية منها صورة في دار الكتب الملكية المصرية.

اليوم، إلا أنه يشغل في آداب العالم مكانة ممتازة من حيث اتساع دائرته. ولم نر اجتماع علماء جميع الأمم المتحضرة في العالم القديم وجمعهم للروايات التاريخية المتصلة بالتاريخ العام في كتاب واحد لا قبل ذلك الزمان ولا بعده. وقد كان علماء أوروبا حتى في القرن التاسع عشر يريدون أن يفهموا من التاريخ العام تاريخ أوروبا الغربية فقط. ومن رواية أحد مساعدي رشيد الدين من كتاب المسلمين يتبين أنه منذ ابتداء القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) كان يُنظر إلى تاريخ العرب والفرس كأنه "أحد الأنهر التي تصب في بحر تاريخ العالم العام".

لم يقتصر تأثير إيران في ساحات العلم والفن والأدب على البلاد التابعة لها سياسياً فحسب، بل كانت علاقات وثيقة من قبل بين سواحل نهر إيديل (فولجا) وجيحون (آمودريا)، وبهذه العلاقات يفسر اعتناق بلغار إيديل للدين الإسلامي. مع أن شواطئ هذين النهرين لم تدخل في حدود دولة واحدة إلا في زمان المغول (في حكم جوجى ابن جنكيزخان الأكبر).

ولم تخل هذه الحالة من تأثير في حياة مدينة بلغار الكبرى عاصمة البلغار القدماء، ومدينة "سراي" التي أنشأها المغول، وقد تحقق في الأزمان الأخيرة وجود أشعار فيهما أيضاً باللغة التركية متأثرة بالشعر الفارسي.

ابتدأ الدين الإسلامي ينتشر بين الشعوب التركية في التركستان منذ القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي). وفي القرن الخامس الهجري ألف لخان كاشغر كتاب "قوتاد غو بيليك[١]" وهو أول كتاب إسلامي باللغة التركية.

---

(١) معناه علم السعادة أو علم جدير بالملوك. ألفه يوسف خاص حاجب البلاساغوني باللغة التركية الشرقية سنة ٤٦٢ الهجرية برسم طفغاج بغراقراخان ملك كاشغر في التركستان الشرقية. ومنه نسخة

وتُذكر في هذا الكتاب قصص أخلاقية تشرح واجبات العمال والملوك. وتوجد مثل هذه القصص المكتوبة غالباً على صورة نصيحة الأب لأبنائه عند كل الأمم في الزمان القديم والقرون الوسطى؛ فمن هذا النوع كتاب "قابوسنامه" الذي كتب باللغة الفارسية في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، ألف في صورة نصائح من أحد أمراء ساحل بحر الخزر لابنه[1]، ونال شهرة واسعة وترجم إلى اللغة التركية أيضاً. ولم تفقد هذه الكتب الأخلاقية والنصائح قيمتها عند قرائها إلى اليوم في إيران وفي كل بلاد ازدهر فيها الأدب قليلا أو كثيراً. وتذكر في هذه الكتب، بعد النصائح، أمثلة مستخرجة من الحياة وأحداث تاريخية. ولكنا لا نجد في قوتادغو بيليك غير مجازات ساذجة (مثل شاعرنا العدل في صورة أمير والدولة في صورة وزير) وضروباً من نصائح جافة بعيدة عن الحياة. وقد كان تأثير الأدب الإسلامي والأدب الفارسي في الأتراك عميقاً إلى درجة أن نسي الذين أسلموا منهم ماضيهم بالرغم من وجود كتابة لهم قبل الإسلام.

بالخط العربي في دار الكتب المصرية كانت فريدة حتى ظهرت نسخة أخرى بالحروف العربية، وهي النسخة التي وجدت بفرغانه بالتركستان ونقلت إلى مكتبة لنينجراد. كان أول ظهور هذا الكتاب سنة ١٨٩١م حيث عثر المستشرق الروسي ف. رادلف w. Radloff على نسخة مكتوبة بالحروف التركية الأيغورية بمكتبة فينا ونشرها بالزنكوغراف. ثم نشر متن الكتاب مطبوعاً بحروف سبكها خاصة بهذا الكتاب، مع ترجمته الألمانية سنة ١٩٠٠م.

ثم جمع المجمع اللغوي التركي تلك النسخ الثلاث باستخراج صورها الفوتوغرافية، ودرسها مع مقارنة بعضها ببعض، وأصلح ما وقع من الأغلاط في ترجمة رادلف، بعد جهد شاق في نحو ثمانية أعوام. ثم نشر صور النسخ الثلاث الزنكوغرافية في ثلاث مجلدات سنة ١٩٤٢م.

(1) ألفه كيكاوس بن إسكندر بن قابوس من الدولة الزيارية.

وتلقى الناس "قوتادغو بيليك" بالقبول رغم كل عيوبه المذكورة. وقد نقشت أبيات منه على زهرية خزفية مصنوعة في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) وجدت في مدينة "سرايجك" على مصب نهر أورال. ولكن يبدو أنه لم يقلده أحد. وأخذ دعاة الإسلام منذ القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) يؤلفون كتباً دينية منظومة أو منثورة باللغة التركية لتعزيز الدين الإسلامي في الأتراك، فأشعار الشيخ أحمد يسوي[1] المؤلفة على هذا الأسلوب لا تزال تُتخذ أنموذجاً لشعراء العامة إلى هذا اليوم. وأما الطبقة المثقفة فقد اكتفت بالأدب الفارسي الذي نال رعاية الخانات أيضاً زمناً طويلاً. وأما السلاجقة، فاتحو إيران وآسيا الصغرى الذين كانوا أقل حضارة من القراخيانيين فاتحي التركستان حين دخولهم في الإسلام، فقد كان انغماسهم في الحضارة العربية والفارسية أسهل، وأغلب الظن أنه لم تكن لهم كتابة وتقاليد أدبية.

إن انتصار المغول دعا إلى اعتزاز الأقوام الرحل بتقاليدهم ونظم حياتهم ولغاتهم، وكان أساس معيشة الرحل واحداً في كل البلاد على اختلاف اللغة المغولية عن التركية وكون المغول أقل حضارة من الأتراك. ثم كان المغول الرحل السائرون إلى الغرب أقل من الترك عدداً؛ فمن هنا كان نسيانهم للغتهم في البلاد التي يكثر فيها الرحل كتركستان و"آلتون

([1]) ولد ببلدة يسي في التركستان، وتلقى العلوم الدينية والتصوف في بخارى التي كانت أكبر مركز ديني فيما وراء النهر في ذلك العهد؛ ثم عاد إلى بلدته يسي وأنشأ طريقته المعروفة بالطريقة اليسوية. وقد انتشرت هذه الطريقة في البلاد التي يسكنها الأتراك من آسيا الوسطى وشرق أوروبا. وله ديوان باللغة التركية الشرقية يسمى ديوان الحكمة، يجمع آراءه الصوفية، ولا يزال يقرأ بإجلال في البلاد المذكورة. وتوفي الشيخ أحمد يسوي سنة ٥٦٢هـ.

أوردا" واتخاذهم التركية لغة لهم. وأما المغول الذين كانوا في إيران فقد استطاعوا المحافظة على لغتهم مدة أطول. وقد حاول المغول فيها أن يبدعوا لهم أدباً باللغة المغولية حتى بعد اعتناقهم الإسلام؛ فترجم كتاب كليلة ودمنة، وهو مجموعة قصص هندية، من الفارسية إلى المغولية، ولكن تأثير هذا الأدب في حياة المغول ولغتهم الأدبية بعد هذا العهد أو عدم تأثيره مسألة لا تزال موضع النظر. وهناك من يظن أن بعض القصص المتعلقة بـ"باغاتير جانغار" (بهادر جهانكير بالفارسية) البطل الأسطوري المعروف اليوم عند المغول والقلموق قد نشأت في إيران. وقد حافظ فاتحو المغول على لغتهم في أفغانستان إلى اليوم، ولكن ليس لهم أدب شعبي.

لم يكن النشاط الذي بذله ملوك المغول لرفع شأن شعبهم في إيران مفيداً لهم، بل أفاد شعور الأتراك القومي؛ فإن الأتراك هم الذين استفادوا من الأوصاف الواضحة التي ذكرها رشيد الدين في وصفه لحياة الرحل في كلامه على جنكيزخان وأسلافه والقبائل المغولية والتركية الأخرى ولم ينتفع بها المغول. وقد ترجم هذا القسم إلى التركية مرات عديدة. وترجم أيضاً للقيصر بوريس غودونف في روسيا. وبتأثير رشيد الدين صاغ الترك الروايات الشعبية الأسطورية الخاصة بجدهم أوغوزخان – جد الغزية – في قالب أدبي. وأخذ أحد مؤرخي آسيا الصغرى الذي ألف قصة أوغوزخان في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)، الكلمات الحكمية التي نسبها رشيد الدين في كتابه إلى

جنكيزخان ووضع أوغوزخان مكان جنكيزخان بدون أي تحرج[1]. ولا شك أن للأدب الفارسي تأثيراً في إفراغ الروايات القومية في قالب أدبي، وآية ذلك كلمة "أوغوز نامة"؛ فإن كلمة "نامة" تطلق في الفارسية على الكتابة والكتاب. و"أوغوز نامة" اسم للمناقب المتعلقة بالأتراك الغز، وكان يقصها شعراء الغز الشعبيون الذين يسمون "أوزان".

ولا شك في أنه يمكن أن يقال أن أعمال الحضارة التي بدأها العرب والفرس، قد أدامها الترك بقواهم الناشئة؛ فأمدوا الحضارة الإسلامية بحياة جديدة. والحق أن الأتراك أبدعوا لهم لغة جديدة أدبية في التركستان وفي آسيا الصغرى – وإن كانت على غرار غيرهم –؛ ففي آسيا الصغرى أخذت قصص البطل العربي السيد بطال الذي استشهد في أيام الأمويين وجُعل مقاتلا تركياً، وفي الكتاب المؤلف عن "قورقود" أبي الأتراك وشاعرهم الشعبي في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)، موضوعات أخذت من غيرهم ثم تُركت بالصورة عينها. وجلال الدين الرومي وهو أحد شعراء الأدب الفارسي الكبار في القرن السابع، ومؤسس الطريقة المولوية و"أحد عظماء متصوفي الإسلام" على رأي بعض العلماء[2]، وكتابه المثنوي مرتبطان بآسيا الصغرى أيضاً. وقد أخذ أتباع هذه الطريقة منذ نشأتها يكتبون باللغة التركية واللغة الفارسية.

---

(1) يقصد بارتولد بهذا كتاب "سلجو قنامه" الذي ألفه يازيجي أوغلي على باللغة التركية في عصر السلطان مراد الثاني. انظر مقالنا في الأدب التركي في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) في دائرة المعارف الإسلامية. محمد فؤاد كوبريلي

(2) إن كون جلال الدين من عظماء متصوفي الإسلامي ليس رأياً لبعض العلماء، ولكنه مسلم عند كل من يعرف تاريخ التصوف الإسلامي.

ووجدت الدرويشية والشعر الصوفي في موطن الترك بآسيا الصغرى بيئة أصلح لهما من إيران؛ فسارا فيها سيراً أكثر استقلالاً ونضوجاً. وفي القرن السابع أيضاً اتخذت اللغة التركية لغة رسمية للدولة في آسيا الصغرى[1]، ونشأت بهذه الصورة لغة أدبية مصطنعة ولكنها جميلة، محتوية على كثير من الكلمات العربية والفارسية، ومحافظة على الصيغ الصرفية التركية الخالصة. وكانت هذه اللغة تخالف لغة الشعب مخالفة تامة فلا يفهمها. وكما ظهر تأثير الأدب الإيراني ظهر تأثير فن العمارة الإيرانية أيضاً؛ فأنشئت في قونية وبروسة مبان متأثرة بالأساليب الإيرانية، غير أنها لم تكن مقلدة تقليداً محضاً؛ فتبدو في المباني المنشأة في قونية مع الأثر الإيراني آثار للتقاليد المحلية السابقة للإسلام.

كانت آسيا الصغرى خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين (الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين) بأيدي شعبة من السلاجقة الذين حكموا في إيران والعراق. وفي النصف الثاني من القرن السابع الهجري خضع سلاجقة آسيا الصغرى لملوك المغول (الإيلخانية) الحاكمين في إيران، وقد انقطعت العلاقات بين إيران والتركستان عدة قرون بعد انهيار الدولة السامانية في نهاية القرن الرابع الهجري (نهاية القرن العاشر الميلادي)؛ ففي القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) وفق السلطان محمد ملك خوارزم – كما رأينا سابقاً – لجمع التركستان وإيران في إدارة واحدة، إلا أن دولته كانت قصيرة العمر؛ فلم تؤثر في

(1) الدولة العثمانية قامت سنة ٧٠٠هـ ولم تتخذ التركية قبل قيامها لغة دولة إلا مدة قصيرة.

تقدم الحضارة. وفي عهد خلفاء جنكيزخان تألفت في التركستان دولة مغولية مستقلة، فتحول الخلاف بين خانات التركستان وخانات إيران إلى عداوة. ورغم ذلك نشأ في التركستان في هذا العهد أدب تركي متأثر بالأدب الفارسي، وكانت اللغة التركية تعد اللغة الثقافية الثالثة للعالم الإسلامي منذ القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي).

قال جمال الدين القرشي الذي شرع في تأليف كتابه في بداية القرن الثامن الهجري (بداية القرن الرابع عشر الميلادي)، أنه كان للشيخ حسام الدين عاصمي – وهو من معاصريه – مؤلفات عدة باللغات الثلاث، وأن أشعاره العربية ممتازة بالفصاحة، وأشعاره الفارسية "بالملاحة"، وأشعاره التركية بالصحة؛ فعلى هذا يبدو تفوق الأدب العربي في الفصاحة كما كان في عهد المأمون، وتفوق الأدب الفارسي في عمق معناه. وأما الأدب التركي الذي أخذ يتكون حديثاً، فكان تابعاً من كلتا الجهتين للأدب العربي والأدب الفارسي وجاذباً للقلوب ببساطته وصدقه.

إن نهاية القرن الثامن والقرن التاسع (نهاية القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر) هو عهد التركستان اللألاء الذي لم تشاهد مثله قط، وقد اتحدت التركستان وإيران من جديد في حكم تيمور وأسرته. وذهبت جيوش تيمور إلى مسافات شاسعة؛ ففي الغرب إلى بروسه وأزمير، وفي الجنوب الشرقي إلى دهلي، وفي الشمال إلى إيرتيش[1]. ولم يكن تيمور

([1]) إقليم في سيبريا يمر به نهر ابرتيش.

أقل من جنكيز قسوة وسفكا للدماء في البلاد التي استولى عليها، ولكن كان نشاطه في الإصلاح عظيما كنشاطه في التخريب. ضُربت أعناق عشرات الآلاف من الناس في المدن الكبرى، وأقيمت أبراج من رؤوس الإنسان، وعوقب آلاف من الناس بعقوبات قاسية. وفي الوقت نفسه أنشئت قنوات مياه كبيرة هائلة ومبان عظيمة، وقد اهتم تيمور اهتماماً خاصاً بإصلاح سمرقند عاصمة ملكه، وأحضر إليها – بالقوة أحياناً – كثيراً من العلماء والصناع من البلاد التي خربها. وسمى تيمور القرى التي أنشأها حول سمرقند بأسماء المدن الكبيرة كدمشق ومصر وشيراز وسلطانية، قاصداً بذلك ضمان تفوق عاصمته على المدن الأخرى. أنشئت المباني على الطراز الإيراني، إلا أنها فاقت نماذجها في ضخامتها، وكان تيمور يدل على الطريق في هذا الشأن أيضا، بل يحير المهندسين المعماريين أحياناً بآرائه الجديدة التي يعجز عنها الفن، ومعظم المباني الباقية من عهد تيمور خربة اليوم. وقد كان بعضها في حاجة إلى التعمير منذ القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي). وكان جامع سمرقند المسمى "مسجد بيبى خانم"، وهو أكبر تلك المباني، قد بلغ حالة مخيفة في حياة تيمور، إذ كانت قطع الآجر المتساقطة تزعج الجماعة أثناء إقامة الجمعة، وأما في زمن أبناء تيمور فقد تقدم الإصلاح بقوة شديدة بالقياس إلى التخريب، وفقدت المقاصد الحربية قوتها القديمة، بل تقلصت حدود الدولة قليلا قليلا.

استمرت أعمال الإصلاح في المدن الكبرى – وخاصة في سمرقند وهراة – بنشاط عظيم؛ فأخذ العلماء والشعراء والصناع يقدمون إلى قصر

الملك راغبين وقد ترك حكم ألوغ بك حفيد تيمور الذي امتد أربعين عاماً (٨١٢- ٨٥٣هـ- ١٤٠٩- ١٤٤٩م) آثاراً كثيرة جداً في سمرقند. ومنها المدرسة التي في بخارى المنقوش على جدارها "طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة"، والمدرسة التي بسمرقند. وكان قاضي زاده الرومي يقوم بتدريس علم الهيئة في هذه المدرسة، علاوة على العلوم الدينية التي تدرس فيها. وأما المرصد الذي أنشأه ألوغ بك فقد أدى – على قصر مدته – أعمالا جليلة. وكان علماء إفيران وطلبتهم الذين أحضروا من إيران يدرسون فيه حركات الكواكب، وألوغ بك نفسه يشتغل معهم. وباسمه نُظمت جداول الهيئة وفهرس الكواكب[1]. وهذا الكتاب هو آخر كلمة الهيئة في القرون الوسطى، وآخر مرحلة بلغها العلم قبل اختراع المنظار (التلسكوب). ولألوغ بك مكانة ممتازة في تاريخ العالم الإسلامي باعتباره ملكا عالماً. ولم يجد معاصروه شبيهاً له غير الإسكندر تلميذ أرسطو المتوج. وكان ألوغ بك مشتبعاً بفكرة رقي الإنسانية العامة أكثر من الفروق الدينية والقومية، وقد أبدى في مقدمة جداول الهيئة رأياً جديراً بكثير من الاهتمام وإن كان خطأ؛ فهو يرى "أن النتائج التي تنتجها العلوم المثبتة تحافظ على قيمتها دائماً، وليس لتغير الأزمان والقوميات واللغات تأثير فيها". والحقيقة أن ليس لكتب علماء اليونان والرومان اليوم غير خطورة تاريخية، بينما تحافظ كتب أدباء اليونان والرومان على جدتها وجمالها حتى مع ترجمتها إلى لغات أقوام أخرى في أزمان مختلفة؛ فرأي ألوغ بك طبيعي جداً للحضارة الإسلامية

([1]) يعني الزيج الذي ألف بأمر ألوغ بك وسمى الزيج الجديد السلطاني.

التي أخذت فلسفة اليونان وعلومهم ولكنها ظلت جاهلة بأدبهم.

ومن الطلبة الذين درسوا مع ألوغ بك في قصره علي قوشجي، وكان ألوغ بك يسميه ابنه، كان المرصد خرباً في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي). وأما في القرن العشرين الميلادي فلم يمكن الحصول على أطلاله إلا بالحفر. انتقل قوشجى من التركستان إلى إيران ومنها إلى تركيا وخرج فيها كثيراً من الطلبة.

وأزهى عهد هراة هو أيام حكم السلطان حسين بيقرا (٨٧٤- ٩١٢هـ = ١٤٦٩- ١٥٠٦م) وقد ظن أهل آسيا الوسطى أنه لا توجد مدينة على وجه الأرض يمكن مقارنتها بهراة. ولم تنشأ هذه العقيدة من سعتها بل من نظرهم إلى مستوى الحياة المدنية فيها، وإلا فإن هراة كانت أصغر من سمرقند. وكان عهد السلطان حسين زمناً غريباً، اجتهد فيه كل الناس لإتقان ما يعملونه على أكمل وجه. وكان على شير[1] يقوم بحماية العلم والفن، فاسم الجامي وهو أحد عظماء شعراء إيران[2] واسم ميرخوند مؤلف التاريخ العام المشهور جداً في إيران اليوم[3] متصلان اتصالاً وثيقاً باسمي السلطان حسين ونوائي.

---

(1) الأمير علي شيرنوائي أحد حماة العلم والأدب في عهد السلطان حسين بيقرا، وأعظم طلائع الأدب التركي بلغة جغتاي. وآثاره في التأليف ورعاية المؤلفين، وفي تشيد الأبنية العامة والمدارس وإجراء الصدقات مضرب المثل. توفي سنة ٩٠٦هـ.

(2) الشيخ عبد الرحمن الجامي أحد كبار العلماء والشعراء في القرن التاسع الهجري، له كتب كثيرة عربية وفارسية في اللغة والتفسير، وله منظومات كثيرة بالفارسية توفي سنة ٨٩٨هـ.

(3) كتاب روضة الصفاء في سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء، ولابنه خوندمير كتاب في التاريخ قيم يسمى "حبيب السير في أخبار أفراد البشر".

وكان تحت سلطان ألوغ بك إمارة بخارى الحالية وبلاد كاشغر وولاية سمرقند وفرغانة وناحية واسعة من مقاطعة سيحون (سيردريا). وأما خراسان وأفغانستان وقسم من خوارزم فكانت تحت حكم السلطان حسين بيقرا. ولكن لم يقتصر تأثير الحضارة الإيرانية على حدود هاتين الدولتين، بل قلد جيرانهم الشرقيون ما قام به تيمور وأبناؤه من النشاط المعماري. ولعل الجامع الذي في شمال غربي مدينة غولجه[1] والذي يقال أنه بناه تغلق تيمور[2] المتوفى سنة ٧٦٢هـ (في رأس سنة ١٣٦٠م) يرجع إلى القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) وقد بنى في القرن التاسع الهجري "كروانسراي طاش رباط[3]" على إحدى الطرق الأصلية الموصلة إلى كاشغر في القسم الجنوبي من مقاطعة "يدي صو" Semirce، وأما المئذنة المشهورة بـ"بوران" التي ببلدة "طوقماق" في مقاطعة "يدي صو" فلم يعلم متى بنيت، فلا تؤثر كتابة عنها ولا عليها نقوش.

كانت لغة تيمور وأسرته الأصلية هي اللغة التركية، وإذا نظرنا إلى

---

(1) عاصمة إقليم غولجة أو إيلي بمقاطعة جونغاريا بشمال غربي الصين. عدد سكانها نحو اثني عشر ألفاً معظمهم من الأتراك المسلمين وبها عدة مساجد بنت الحكومة الصينية بعضها، وبعض معابد للوثنيين وكنيستان.

(2) من أحفاد جغتاي بن جنكيزخان، حكم في بلاد المغول ومقاطعة كاشغر في أواسط القرن الثامن الهجري. وكان دخوله في الإسلام سنة ٧٥٤ مختاراً سبباً لإسلام كثير من المغول وقبائل الجغتاي التي لم تكن أسلمت بعد. ومنذ هذا التاريخ أصبح الحكم في مقاطعة كاشغر في يد المسلمين.

(3) كروانسراي أي منزل القافلة، بناء يبنى على الطريق لإيواء المسافرين، وكان في إيران وآسيا الوسطى كثير من هذه الأبنية.

أعمال تيمور وأبنائه لم نجد فيهم إحساساً بالقومية التركية. ولكن إخوانهم في القومية انتفعوا بعظمتهم وسلطانهم في رفع شأن اللغة التركية وأدبها. ظل الشعر التركي مقلداً، إلا أن شعراء الترك لم يكونوا يرون كتبهم أقل من نماذجها الفارسية. وقد عُد الشعر التركي جديراً بقوة ملوك الترك وعظمتهم. قال الشاعر السكاكي لألوغ بك: "سيدور الفلك كثيراً حتى ينجب شاعراً تركياً مثلي وملكا مثلك". وقد كسف على شيرنوائي جميع من سبقوه من الشعراء. كان نوائي يكتب بالفارسية أيضاً، إلا أنه ذاع صيته شاعراً تركياً، فصارت مؤلفاته كتباً تقليدية (كلاسيك) لجميع الأتراك في الأقاليم الواسعة من مدينة "توبول" إلى استانبول. كان نوائي تركيا ومحباً لوطنه، وقد حاول أن يثبت أن اللغة التركية ليست بأقل من الفارسية[1] ولهذه الغاية أخذ موضوعات الأدب الإيراني وكتب فيها مثنويات بالتركية. وهكذا لم يستطع إنقاذ الأدب التركي من التقليد حتى شاعره التقليدي. ومع ذلك فليست مؤلفاته صوراً من الأدب الإيراني فقط؛ فلغته بالرغم من أنها مصطنعة، أبسط من نماذجها كثيراً وأوضح منها وأقرب إلى الحقيقة. ويتجلى في كتبه الإبداع الخاص بأدب العهد التيموري، وقد رأى الشاعر السكون معادلا للموت.

وتنطبق الأقوال المذكورة على مؤلفات بابر أيضاً انطباقاً تاماً. وقد اضطر الميرزا بابر المولود سنة ٨٨٧هـ (١٤٨٢م) والمتوفى سنة ٩٣٧هـ (١٥٣٠م) إلى مغادرة تركستان تحت ضغط الأزبك وأن يؤسس

---

(١) كتب نوائي في هذا كتاب محاكمة اللغتين وبين فيه مزايا التركية وقارنها بالفارسية.

دولة جديدة في الهند. وعرف لبابر منذ القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) سيرته المسماة "بابرنام" وهو كتاب النثر التركي التقليدي بحق، زيادة على كتبه المنظومة والمنثورة. وقد ألف بابر كتابه هذا بلغة تركية سهلة واضحة، مع وقوفه التام على الثقافة الإسلامية والأدب الإيراني، وتقدير القراء لأسلوبه هذا دليل على ما فيه من ذوق أدبي سليم ومتين. وتزيد خطورة هذا الأسلوب إذا فكرنا في وصف دولتشاه السمرقندي وهو أحد كتاب الأدب الإيراني في ذلك العهد لأسلوب رودكي السهل بأنه أسلوب رديء، ووصف الكتاب العثمانيين اللغة التركية السهلة التي كتبها أجدادهم بأنها لغة "تركية غليظة". وقد كان تيمور يطلب إلى المؤلفين أن يؤلفوا كتبهم بحيث يحبها المثقفون ويفهمها غير المثقفين. وأظن أن هذه الرغبة لم تكن رغبة تيمور وحده بل رغبة جمهرة عظيمة في عهد التيموريين. إذ كانت الأنظار لم تتحول بعد إلى الخلف بل كانت متجهة إلى الأمام؛ فبدل تقليد الآباء على غير هدى وضع بابر هذا الأصل الواضح: "إن كان أبوك قد وضع قانوناً فاحفظه، وإن كان هذا القانون سيئاً فاعمل أحسن منه"[1].

([1]) هو ظهير الدين محمد بابر شاه من أحفاد تيمورلند ومؤسس الدولة التيمورية في الهند، وأحد أعاجيب الزمان همة وطموحاً وصبراً على غير الزمان. فقد إمارة صغيرة فيما وراء النهر، فأبت همته إلا أن تختط لنفسه مملكة في أفغانستان اتسعت من بعد حتى شملت البنجاب وبعض أقاليم الهند وتركت للتاريخ دولة من أعظم الدول التي عرفها، وله سيرة كتبها بنفسه سجل فيها الغير التي مرت به منذ صباه وهي من أمتع السير وأروعها.

الفصل السادس

العالم الإسلامي بعد القرن التاسع

إن القرنين التاسع والعاشر الهجريين (الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين) هما عهد وفق فيه السلاح الإسلامي أعظم التوفيقات؛ فقد وُضع أساس دولتين عظيمتين في هذا العهد، غير الدولة العثمانية التي أسقطت بوزنطة وهددت فيينا. إحدى هاتين الدولتين هي الدولة الصفوية والأخرى هي الدولة المغولية العظمى التي تأسست بالهند، أي دولة أسرة بابر. ومع ذلك قد بدأت مصائب العالم الإسلامي في هذا القرن أيضاً؛ إذ أن التفوق المدني الذي ظل في الشرق الأدنى زهاء ألف عام قد بلغ نهايته في هذا العصر وانتقل التفوق المدني إلى الأوروبيين الغربيين.

وتدل الحوادث التي ذكرناها سابقاً على أن هذه الحال لا يمكن تفسيرها بأنها ناشئة عن شيخوخة الحضارة التي عاشت ألف عام؛ فقد قام العرب والإيرانيون بعمل ما استطاعوا عمله خير قيام. ولا يجوز مطلقاً أن يقال أن الأتراك لم يبدعوا شيئاً. وقديماً اشتكى كتاب اليونان والرومان قائلين: "شاخت الدنيا ونفدت قوة الإنبات في الأرض، وجفت الينابيع، ولا يزيد الناس، فلا ينشأ جندي ولا ملاح ولا زارع". ولكنا لا نرى في الأدب الإسلامي في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر) مثل هذه

الشكايات. والحق أنها ليس لها سبب، لأن العالم الإسلامي لم يفقد بعدُ قدرته على الحضارة. ومع ذلك لم يقدر على مزاحمة عالم المسيحية. وقد تقدمت حياة المدن والتجارة والصناعة في أوروبا في هذا العهد تقدماً سريعاً جداً. ولم تتحول المنازعات بين الطبقات والدول إلى شكل مشوش كما حدث في الشرق الأدنى من هجمات البرابرة. وفي القرن التاسع أيضاً انتصرت الصناعات التي تكفلت بتفوق أوروبا على جميع العالم.

ويحتمل أن البارود كان معروفاً في الشرق الأقصى، وربما انتُفع به في الحروب أيضاً، ولكن لم تخترع الأسلحة النارية إلا في أوروبا، وعرف اختراع الأوروبيين هذا للدول الشرقية بعد مدة قصيرة، حتى أن الترك استفادوا منه في فتح استانبول فائدة كبيرة. وقد كان العثمانيون في القرن العاشر الهجري (السادس عشر) لا يتأخرون عن الأوروبيين في شيء من فنون الحرب. ولكن هذه المخترعات الأوروبية دخلت في الشعوب الإسلامية البعيدة عنها ببطء شديد. ولم تكن سيبريا، وهي أبعد نقطة في العالم الإسلامي شمالاً، تعرف الأسلحة النارية حتى في النصف الثاني من القرن السادس عشر، وقد ساعدت هذه الحال مساعدة كبيرة في انتصار الروس. ولإنشاء السفن خطورة خاصة في أوروبا فبعد استكشاف رأس الرجاء الصالح أخذت سفن أوربا تمخر عباب الماء في بحر الهند، ولم يقدر المسلمون على مقاومتهم فاضطروا إلى ترك تجارة الهند والصين البحرية.

لم يرض العالم الإسلامي بهذه الحال في الوهلة الأولى؛ ففي النصف الأول من القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) أدرك الترك درجة تفوق الأوروبيين في البحر، ورأوا وجوب إنشاء أسطول كأسطول الأوروبيين، كما قلد الأوروبيون العرب في هذا سابقاً، ومما يلفت النظر كثيراً أن الربان سمي في تركيا قبوداناً (قبودان باشا) وهو اسم مستعار من الأوروبيين في حين أن الأوروبيين استعملوا لقواد الأسطول كلمة "أميرال" المأخوذة من كلمة أمير الماء العربية. وفق الترك مرة واحدة عام ١٥٣٨ لإرسال أسطول إلى شواطئ الهند، إلا أن هذا المشروع لم ينتج ولم يتكرر، وقد انتقلت المكانة الأولى في أوروبا من الطرق البرية إلى البحرية بتقدم الملاحة واستكشاف أمريكا، ولم تقف تجارة القوافل التي كانت ترفع شأن المدن الكبيرة أمثال سمرقند وهراة وقوفاً تاماً ولكنها فقدت خطورتها القديمة.

وفي القرن السادس عشر أيضاً خلق الفن (تكنيك) الأوروبي الطباعة إحدى الوسائل العظيمة للحضارة، وقد كان فن الطباعة معروفاً في الصين من زمن بعيد؛ ولعل الأوروبيين تعلموه منها، وانتقلت الطباعة من الصين إلى البلاد الأخرى في الشرق الأقصى. وسبق أهل "كوريا" الصينيين والأوروبيين معاً في اختراع حروف معدنية متحركة. وكان فن طبع الكتب معروفاً في إيران كما كان معروفاً في الصين؛ ففي تاريخ رشيد الدين معلومات مفصلة عنه. ومع ذلك لم ينتفع به عالم الشرق الأقصى مثل ما انتفع به الأوروبيون. وأما المسلمون فلم يقدروا على الاستفادة منه مطلقاً. وقد طبع كثير من الكتب الأدبية والعلمية أيضاً، بالرغم من

قلة عدد المتعلمين في أوروبا، نسبياً في القرن الخامس عشر. وأخذ الأوروبيون في القرن السادس عشر يطبعون الكتب المؤلفة باللغات الشرقية كذلك لأغراض علمية. وأما في العالم الإسلامي فلم تنتشر الطباعة إلا في القرن الثامن عشر، وكان أول ظهورها في تركيا. أخذ المسلمون الأسلحة النارية من الأوروبيين بدون أدنى تردد، ولكن وجب استفتاء علماء الدين في قبول فن الطباعة وهي إحدى مخترعات الكفار. إذ كان يمكن أن تحدث الاستفادة من الكتب المطبوعة، تغييراً كبيراً في عالم "المدارس" الدينية[1].

تدل المقارنة بين الصين وأوروبا الغربية على أن الصناعة وحدها ليست سبباً كافياً لازدهار الحياة الاجتماعية، وقد اتضح أنه يمكن معرفة صناعة البارود ولا تتكون العسكرية القوية، ويمكن معرفة بيت الإبرة (البوصلة) ولا تتقدم الملاحة البحرية، ويمكن معرفة فن الطباعة ولا يتكون الرأي العام. فلو لم يكن في أوروبا ذلك الرقي الاقتصادي والمدني الذي له علاقة بعصر النهضة والذي أنزل الحضارة الإسلامية إلى الدرجة الثانية، لما أنتجت الطباعة هذه النتائج العظيمة. وقد اضطر المسلمون رويداً رويداً إلى التخلي للأوروبيين عن الأستاذية حتى في تعلم اللغات الشرقية وآدابها وتاريخ الشرق. ولما زاحم علماء الهيئة الأوروبيون المسلمين في بلاد الصين وأخرجوهم منها في القرن السابع عشر كثرت المخطوطات الشرقية في مكتبات أوروبا إلى درجة أن

---

(1) كلمة "مدرسة" كانت تطلق في تركيا وإيران على المعاهد الدينية فقط.

استطاع د. هربلوت d. Herbelot أن يؤلف دائرة معارف خاصة بالعالم الإسلامي بدون أن يذهب إلى الشرق.

ولا ينبغي أن يُظن أن العالم الإسلامي قد مُني بعد القرن التاسع الهجري بانحطاط، وأنه لم يستطع أن يقدم للحضارة شيئاً جديداً؛ فتركيا لم تكتف بشهرتها العسكرية في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين، بل صارت استانبول إحدى مراكز الحضارة الكبرى للعالم الإسلامي. فلا تفوقها، في كثرة المخطوطات الفارسية المحفوظة في مكتباتها إلا لندن ولنينجراد من المدن الأوروبية. على أن خدمة الترك لم تقف عند حد التعريف بالتراث الباقي عن الماضي، بل أبرزوا أسلوباً جديداً في فن العمارة يخالف العمارة الإيرانية، فالمباني التي بناها المعمار التركي الكبير سنان – وهو رومي الأصل – ليست مطلقاً بأقل من آثار عهد النهضة المعمارية في أوروبا، ويُعد سنان جامع سليمية الذي بأدرنة من أعظم آثاره.

وقد عاش العالم التركي المشهور والمعروف بكاتب جلبي أو حاجي خليفة في القرن الحادي عشر (السابع عشر الميلادي). ومن مؤلفاته كتابه العظيم في فن الكتب الذي يشتمل على جميع شعب العلوم والآداب. وله كتاب آخر في الجغرافيا[1] وهذا الكتاب محاولة جمعت معلومات الأوروبيين والمسلمين في الجغرافيا معاً. ولم تكن أوروبا قد قامت بمثل هذه التجربة إلى ذلك الوقت. وفي القرن الحادي عشر نفسه

---

(1) كتاب جهانما، وقد طبع في استانبول سنة ١١٤٥هـ.

قام أوليا جلبي برحلة كبيرة وألف كتابه المشهور. وأن هذا الكتاب بالرغم مما به من المعلومات الملفقة، يترك كتب العرب في المؤخرة من حيث كثرة ما يحوي من المعلومات ووسعتها[1].

وكانت إيران في أوائل القرن الحادي عشر الهجري يحكمها الشاه عباس الكبير (٩٩٦- ١٠٣٨هـ= ١٥٨٧- ١٦٢٨م). وهذا العهد الطويل عهد زاه جداً في تاريخ إيران، بقيت منه آثار معمارية عظيمة في أصفهان وكانت العاصمة وفي مدن أخرى. وقد قارن سياح إيطالي في زمن الشاه عباس "ميدان شاه عباس" وحديقة "جهار باغ" بأكبر شوارع وميادين المدن المسيحية في ذلك العصر. ويزاد على هذا أن الأسرة القاجارية نفسها، وهي آخرة الأسر، اجتهدت في تقدم حياة المدن غير مكتفية بتقوية نفوذ الحكومة، وعمرت مدينة تبريز فصارت مدينة عظيمة بعد أن خربت تماماً في القرن الثامن عشر، وذلك زيادة على مدينة طهران العاصمة.

وكانت الدولة المغولية في الهند لا تزال إمبراطورية قوية في القرن السابع عشر. وتشكل فن العمارة الإيرانية هنا بشكل جديد متأثر بالهند؛ والآثار المعمارية التي خلفتها الدولة المغولية من ذلك العهد عظيمة ولو

---

(1) يترجم الأستاذ حمزة الجزء الذي يخص مصر من هذا الكتاب إلى اللغة العربية لوزارة المعارف المصرية.

قيست بآثار الأوروبيين في العهد نفسه[1]. وكانت ثروتهم تزيد كثيراً على ثروة فرنسا وهي أغنى دول أوروبا في ذلك العصر.

إن البربرية لم تستطع الانتصار على الحضارة انتصاراً تاماً حتى في التركستان التي استولى عليها الأزبك البرابرة في القرن العاشر (القرن السادس عشر). وقد استمرت تقاليد تيمور وبنيه في سمرقند حتى في القرن الحادي عشر الهجري، نستدل على ذلك بمدرستي "شيردار" و"تيلا قاري" استدلالاً بيّناً. وكانت ببخارى مكتبات غنية جداً في تلك الأزمان، ذكر المؤرخون أنه كان بها كتب في فلسفة الرواقيين والمشائين. وقد أنزل الأزبك ضربة قاضية بالتجارة وحياة المدن في خوارزم. ولكن تقدمت الأعمال الزراعية إلى حد ما بفتح قنوات كبيرة جديدة، وتم في فرغانة أيام حكم خانات خوقند في القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) أعمال ري عظيمة وأنشئت مدن جديدة. وكما أن فن العمارة تأثر بالهند في الدولة المغولية الكبرى فإن فن العمارة الإسلامية كان تحت تأثير الصينيين في جهات التركستان التي استولى عليها الصينيون فنشأ أسلوب مزيج، ظهر حتى في بعض المساجد.

كل هذا يدل على أن القول بأن العالم الإسلامي "كان في نوم عميق" قبل أن يأخذ في النهوض بتأثير أوروبا في القرن التاسع عشر، مبالغ فيه كثيراً، وحق أن الظروف الملائمة التي أنتجت الحضارة الإسلامية لم تبق. وقد اضطرت الدولة الإسلامية في هذا الزمن لأن تضع نصب عينيها في الصف

---

(1) هذه الآثار أعظم من الآثار الأوروبية المعاصرة ولا ريب. ولا توفيها حقها الجملة الغامضة التي كتبها المؤلف.

الأول، الشئون الحربية وترقية العنصر التي تؤهل الشعب لأن يكون موضع الثقة من حيث العسكرية ولو كانت مضرة من الوجهة المدنية. واضطرت الدولة العثمانية – التي لم تكن في البدء مرتبطة بالدين ارتباطاً كبيراً، والتي كانت تحت تأثير الدرويشية الحرة – إلى إحياء المآثر الإسلامية الحربية مراعاة للأحوال؛ فرفع لواء الرسول الأخضر للمرة الأولى في ميدان القتال في الحروب الأوروبية سنة ١٥٩٣[1] (وجد اللواء بجوار دمشق ولكن لا نجد في مرجع من المراجع القديمة شيئاً عن مثل هذا اللواء) ولم يكن ممكناً للدول في هذه الظروف ألا تنصر رجال الدين على رجال العلم؛ وتؤثر لبرابرة أمثال الأرانطة والأكراد المحاربين على المزارعين وسكان المدن. وفي مثل الظروف المذكورة أذن مؤسس الدولة الصفوية في إيران بجعل الشيعة ديناً للدولة. فأمكنه أن يُظهر حروبه مع العثمانيين، جيرانه في الغرب، ومع الأزبك جيرانه في الشرق في صورة حروب دينية؛ فبلغت المنازعة بين أهل السنة والشيعة منذ القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) شدة لم يشاهد مثلها في القرون الوسطى، فأخذ أهل السنة والشيعة يكفر بعضهم بعضاً معتمدين على رؤسائهم الدينيين. وصارت الشيعية المجادلة كياناً مقدساً لإيران. حتى نشاهد أحياناً أن السكة ضربت باسم إمام الشيعة المتوفى في المشهد الأول القرن الثالث

([1]) كان ذلك في أواخر عهد السلطان مراد الثالث ابن السلطان سليم الثاني في حربه مع المجر (١٠٠٢هـ= ١٥٩٣م) حيث نقل اللواء النبوي الشريف من دمشق الشام وكان محفوظاً بها منذ أن فتح السلطان سليم مصر. حمله منها إلى الأستانة إنكشارية الشام، ثم نقل من استانبول في حراسة ألف رجل من الإنكشاريين إلى الجيش المحارب ببلاد المجر، فأثار منظره الحمية في نفوس المجاهدين الأبطال، ولكنهم تعللوا بأنه لم يسبق أن شتا جيش المسلمين بعيداً عن السلطان، وانضم إلى ذلك عودة أغا الإنكشارية إلى استانبول، والإرجاف بمرض السلطان؛ فخيف من وقوع الخلل في نظام الجيش.

(تاريخ سياسي دولة عثمانية، لكامل باشا، استامبول ١٣٢٧. جـ١ ص٣٠٥).

الهجري وذلك خلال أزمات السلطنة التي حدثت في القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر). وقد زاد نفوذ رجال الدين كثيراً في إيران الرافضية، فلقنوا الشعب التعصب الديني والمذهبي أقوى مما في تركيا السنية.

ولكن كانت الحالة غير هذه على خط مستقيم في الهند في عهد الإمبراطورية المغولية الكبرى؛ فقد تقدمت هذه الدولة على الدول الإسلامية الأخرى تقدماً كبيراً سواء في الرفاه المادي أو السماح الديني. وأما أسباب عجز المسلمين هنا على مزاحمة الأوروبيين في ميادين النشاط العملي فأمور أخرى؛ فإن الإمبراطورية المغولية الكبرى كانت دولة عظيمة مؤسسة على أصول شرقي آسيا، وغنية من الوجهة المادية إلى درجة أنها لم تكن في حاجة إلى الاتصال بالأجانب.

وقد كانت الشؤون الزراعية في عهد المغول، باعتراف الإنجليز أنفسهم فيما بعد، أرقى منها بعد استيلاء الإنجليز عليها. ويرى الإنجليز أن خدماتهم التي قاموا بها للهند هي أنهم كفلوا لها تقدم التجارة البحرية؛ فهم أنشأوا مدناً ساحلية مثل كلكته وبومباى ومدراس، وهي مدن لم تكن في الهند القديمة ما يشبهها.

وبهذه الصورة انتقلت الأولية في ساحة الحضارة من المسلمين إلى المسيحيين. وفي أوروبا عُمل كل ما يفصل أساليب المعيشة عن حياة القرون الوسطى، واتجه انتشار الحضارة اليوم من الشمال إلى الجنوب

ومن الغرب إلى الشرق خاصة. ولهذه الحال خطورة بالنسبة لأوروبا الشرقية خاصة إذ قد تعينت بهذه الصورة واجبات روسيا أيضاً نحو الحضارة[1]. وقد كانت سواحل البحر الأسود الشمالية تابعة في القرون الوسطى كما كانت في القرون القديمة، لسواحله الجنوبية سواء في الحضارة أو في السياسة. وفي القرن الثامن عشر نِشأت مدن في السواحل الشمالية لا يمكن مقارنة مدينة من مدن السواحل الجنوبية بها. وصلت الحضارة في القرون الوسطى إلى شواطئ فولجا من بخارى وخيوه (خوارزم)؛ وأما في القرن التاسع عشر فتعرف تتار فولجا بالأدب الأوروبي بوساطة الروس ثم أخذوا في تثقيف التركستانيين إخوانهم في الدين.

---

(1) أراد بارتولد في آخر كتابه إظهار وظيفة الدول الأوروبية المستعمرة والدفاع عنها؛ هذه النظرة السياسية البحتة التي ليست علمية ولا تاريخية في شيء، قد تكون طبيعية لعالم روسي، وأما المثقفون من الترك والمسلمين فلا يقابلون مثل هذا الدفاع الذي تتذرع به الدول المستعمرة. إلا بأن ينظروا إليه متعجبين! محمد فؤاد كوبريلي

الفهرس